الذنوب التى يتاب منها وأقسامها

- مم نتوب ؟ .
- الإنسان والخطيئة .
- الذنوب ترك مأمور وفعل محظور .
- ذنوب الجوارح وذنوب القلوب .
- الذنوب معاصٍ وبدع .
- الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية .
- الذنوب المتعلقة بحقوق الله وحقوق العباد .
- صغائر الذنوب وكبائرها .
- حقائق حول الكبائر والصغائر .
- مكفرات الذنوب .

مم نتوب ؟
أقسام الذنوب والمعاصى

الأصل فى التوبة : أنها لا تكون إلا عن ذنب ومعصية لله جل شأنه ، ومن هنا كان علينا أن نتعرف على حقيقة الذنوب والخطايا التى نتوب منها ، والتى تباعد بيننا وبين ربنا ، وتحرمنا حبه ونصره ، ودفاعه ومَعيّته وتأييده لنا فى الدنيا ، كما تحرمنا رضوانه ومثوبته وجنته فى الآخرة .

والذنوب أو الخطايا أو المعاصى التى يقع فيها المكلفون : تنقسم إلى أقسام ، وتتنوع إلى أنواع كثيرة ، ينبغى أن نلقى عليها بعض الأشعة حتى تتضح حقائقها ، وتتجلى الفوارق بين بعضها وبعض ، لنعرف أيها أشد خطرا وأيها أخوف على المكلف من غيره ، وإن كانت كلها خطرة ، ومبعدة عن الله سبحانه ، وحاجبة عن الخير والفلاح بمقادير متفاوتة .

تنقسم المعاصي والذنوب والخطايا بحسب طبيعتها إلى ترك مأمور ، وإلى فعل محظور ، كما تنقسم بحسب موضعها وآليات اكتسابها إلى (معاصى جوارح) تؤدى بأعضاء الجسم ، وإلى (معاصى قلوب) تؤدى بواسطة القلب ، وقد لا تظهر للحواس .

كما تنقسم إلى معاصٍ أى مخالفات ظاهرة لأمر الله تعالى وإلى بدع يتقرب بها فاعلها إلى الله .

وتنقسم بحسب أثرها إلى ذنوب ومعاصٍ قاصرة لا تتعدى حدود مقترفها وذنوب ومعاصٍ متعدية ، تتجاوز صاحبها إلى التأثير فى غيره .

وتنقسم إلى ذنوب تتعلق بحق الخالق فقط ، وذنوب تتعلق بحقوق العباد .

وما يتعلق بحقوق العباد منه ما يتعلق بحق الفرد ، ومنه ما يتعلق بحق المجتمع أو الأمة .

وتنقسم بحسب زمنها ومداها إلى ما ينتهى بمجرد الانتهاء من فعله ، وإلى ما يبقى بعد ذلك مُددا تقصر أو تطول .

ثم هى تنقسم بحسب درجتها إلى كبائر وصغائر .

ولكل قسم من هذه الأقسام حكمه وأثره .

فلنبدأ ببيان هذه الأقسام وأحكامها وآثارها ، وقبل ذلك نستفتح بكلمة عن الإنسان والخطيئة فى نظر الإسلام .

الإنسان والخطيئة :

يولد الإنسان فى الإسلام على الفطرة ، طاهرا من كل دنس ، غير ملوث بأى خطيئة من الخطايا .

ولا يوجد فى الإسلام ما عرف فى النصرانية من أن كل إنسان يولد وفى عنقه خطيئة أبيه آدم ، حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ، وذلك لجملة وجوه :

أولا : لأن آدم تاب من هذه الخطيئة ، وتقبل الله توبته ، وغسل منها نهائيا كما وضح ذلك القرآن : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وثانيا : لأن عدالة الله لا تحمّل أحداً وزر غيره ، ولو كان هذا الأحد أباه الذى هو من صلبه ، فكيف يتحمل الإنسان وزر خطيئة ، لم يشهدها ولا آباؤه ، وأجداده ، بل مرت عليها ألوف السنين التى لا يعلمها إلا الله.يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ، وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣) ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ . (٢) البقرة : ٣٧ .

(٣) الأنعام : ١٦٤ .

بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [1] بل أعلن القرآن : أن هذه القاعدة مقررة من قبل فى صحف إبراهيم وموسى ، كما قال تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [2] .

إنما الإنسان هو الذى يكتسب خطاياه بإرادته وقدرته هو ، باختياره وسعيه هو ، فهو وحده يتحمل مسئوليتها ، ومن شاركه فيها بإغراء أو تحريض أو تسهيل أو معاونة بأى صورة من الصور ، فهو يتحمل معه بقدر إسهامه .

وثالثا : لأن الواقع المشاهد أن الإنسان يولد على الفطرة السليمة ، التى فطر الله الناس عليها ، وهى فطرة قابلة للخير قبولها للشر ، مستعدة للتقوى استعدادها للفجور ، وإنما تؤثر فيه البيئة والتربية ، وإن كان ذلك لا يعفيه من المسؤولية فى وجوب تزكية نفسه ، وإبعادها عن التدسية والتدنيس كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [3] ، وقال عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [4] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » متفق عليه .

ورابعا : لأن الخطيئة لا تعتبر خطيئة فى نظر الإسلام إلا إذا توافر فيها عنصر القصد والاختيار . لهذا رفع الإثم عن الناسى والمخطىء والمكره ، كما جاء فى الحديث :

« إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وفى القرآن إن الله علم المسلمين الدعاء فى خاتمة سورة البقرة ، فكان منه : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَو أَخْطَأْنَا ﴾ [5] .

---

(١) المدثر : ٣٨ .
(٢) النجم : ٣٦ - ٣٨ .
(٣) الشمس : ٧ - ١٠ .
(٤) الروم : ٣٠ .
(٥) البقرة : ٢٨٦ .

وجاء فى الصحيح عن ابن عباس أن الله تعالى قال : قد أجبت .

وفى القرآن أيضًا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (١) .

وفيه فيمن قال كلمة الكفر بلسانه تحت وطأة التعذيب: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ (٢) .

بل فى القرآن أن من ارتكب فعلا بإرادته تحت ضغط الضرورة القاهرة ، مثل ضرورة الجوع ، فإن الله قد رفع عنه الإثم ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) ، ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

فكيف يحمل الإنسان خطيئة لم يرتكبها ولم يشهدها ، ولم ينوها ، وليس له بها أدنى علاقة ؟؟!! .

* * *

(١) الأحزاب : ٥ . (٢) النحل : ١٠٦ .
(٣) الأنعام : ١٤٥ . (٤) البقرة : ١٧٣ .

الذنوب ترك مأمور وفعل محظور

تنقسم الذنوب أول ما تنقسم إلى قسمين : ترك المأمور ، وفعل المحظور .

وكثير من الناس يحسبون أن الذنوب إنما هى فعل المحظورات والمحرمات فقط ، ناسين أن أول معصية عُصِىَ الله بها لم تكن فعل محظور ، بل ترك مأمور ، وهى معصية إبليس ، فقد أمره الله سبحانه بالسجود لآدم الذى خلقه الله بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، فخالف أمر الله تباركت أسماؤه ، وجل ثناؤه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وكانت المعصية الثانية فعل محظور نهى الله عنه ، وهى معصية آدم ، فقد نهاه الله وزوجه عن الأكل من الشجرة ، بعد أن أسكنهما الجنة ، وقال لهما : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ولكن آدم عليه السلام غلب عليه ضعف البشر ، فنسى ، ووهن عزمه أمام إغراء إبليس وقسمه له : إنى لك لمن الناصحين ، مستعينا فى إغوائه بغرائز الإنسان فى تزيين المعصية له ، إذ قال له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ (٣) .

واستجاب آدم لوسوسة الشيطان ، وأكل وأكلت معه زوجه من الشجرة المنهى عنها كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(٤) .

---

(١) البقرة : ٣٤ .　　(٢) البقرة : ٣٥ .

(٣) طه : ١٢٠ .　　(٤) البقرة : ٣٦ ، ٣٧ .

وهكذا نرى الذنوب والخطايا تتنوع إلى ترك ما أمر الله به ، أو فعل ما نهى الله عنه .

وما أمر الله بفعله درجات بعضها فوق بعض .

فأعظم ما أمر الله به : التوحيد والإيمان ، وتركه هو الشرك والكفر الأكبر .

ويأتى بعده الفرائض الركنية ، التى هى أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، فترك أى واحدة من هذه الفرائض العظيمة ، والشعائر المقدسة ، من أعظم الذنوب ، وأكبر الآثام عند الله .

وهى فيما بينها متفاوتة ، فأعظمها : الصلاة ، فهى عماد الدين ، وعلامة المؤمنين ، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر ، وقد جعل الله تركها من سمات الكافرين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ (١) .

كما جعل أداءها بكسل وتثاقل من صفات المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾ (٢) .

وجعل سبحانه الويل لمن سها عنها حتى أخرها عن وقتها : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٣) ، حتى ذهب من ذهب من أئمة المسلمين إلى أن تارك الصلاة كافر ، مارق من الملة ، خارج على الأمة .

وبعد الصلاة : فريضة الزكاة التى قرنها الله بها فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا ، وفى السنة فى عشرات الأحاديث ، حتى قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

وقال ابن مسعود : الزكاة قنطرة الإسلام ، من عبر عليها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

---

(١) المرسلات : ٤٨ . (٢) النساء : ١٤٢ . (٣) الماعون : ٤ ، ٥ .

ثم يجيء بعد الزكاة : صوم رمضان ، الذى كتبه الله على المؤمنين ، فيدع المسلم طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله ، إيمانا واحتسابا ، هذا الشهر من كل عام ﴿ فَمَن شَهِدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١) .

وختام هذا الفرائض الشعائرية هو : الحج إلى بيت الله الحرام ، وهو فرض فى العمر مرة واحدة ، تيسيرًا من الله على عباده ، وهو فرض على من استطاع إليه سبيلا ، وملك نفقة السفر ونفقة الإقامة أقصر مدة ممكنة للحج وهو خمسة أيام : من يوم الثامن من ذى الحجة إلى يوم الثانى عشر منه ، وما يلزم لذلك من أيام قبله وبعده ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومن ترك فريضة من هذه الفرائض منكرا لفرضيتها أو مستخفا ومستهزئا بها ، فقد ارتد عن الإسلام لأنه أنكر أمرا بينا معلوما من الدين بالضرورة ، ولا يكون ذلك إلا بتكذيب الله ورسوله ، والكفر بهما .

ومن ترك واحدة منها ، اتباعا لهوى ، أو حبا للدنيا ، أو كسلا أو شحا أو تهاونا ، أو نحو ذلك ، فقد فسق عن أمر الله ، واقترف إثما عظيما .

أما من تركهن جميعا ، فماذا بقى له من الإسلام إلا اسمه ، ويخشى أن يفضى به ذلك إلى الكفر البواح ، والعياذ بالله ، فإن المعاصى بريد الكفر ، ولاسيما هذه المعاصى الكبار .

وبعد ذلك تأتى الفرائض الأخرى : مثل بر الوالدين ، الذى جعله القرآن بعد عبادة الله وحده كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٢) .

ومثل صلة الأرحام ، التى قال الله فيها : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٣) وقوله : ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾(٤) . وقوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى

(١) البقرة : ١٨٥ . (٢) الإسراء : ٢٣ . (٣) النساء : ١ . (٤) البقرة : ٢١٥ .

الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

ومثل الإحسان إلى اليتامى والمساكين والجيران وغيرهم من أصحاب الحقوق ، كما فى آية (الحقوق العشرة) كما سماها العلماء ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى القُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (الزوج أو الرفيق) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ (٢) .

إلى غير ذلك من المأمورات ، التى تتعلق بحق الله ، وحق النفس ، وحق الأسرة ، وحق المجتمع ، وحق الإنسان ، وحق الحيوان . وحق الكون .

ومن المقرر هنا : أن المأمورات المتعلقة بفرض العين - وهو ما يجب عينا على كل إنسان ، أو على إنسان بعينه ، مقدم على فرض الكفاية ، وهو الذى يجب على مجموع الأمة بالتكافل ، مثل تفوقها العلمى أو التكنولوجى أو العسكرى ، فإذا فرطت الأمة فى هذه الفرائض الكفائية كان الإثم عليها جميعا ، كل بمقدار مسؤوليته وثقافته ومكنته .

ومن الذنوب التركية : ذنوب فى غاية العظم ، ونهاية الخطر ، لا يتنبه إليها الكثيرون من الناس ، وهى التى تتعلق بترك فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمة ، وبتضييعها تضيع الأمة ، ويأثم أبناؤها جميعا ، كل على قدر علمه وقدرته ومكانته فى الناس .

وذلك مثل ترك تحكيم شريعة الله فى حياة الناس ، وعدم الحكم بما أنزل الله ، وظلم الفقراء ، والمستضعفين من العمال والفلاحين ، ومثل ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولاسيما المنكرات الكبرى مثل : إباحة المسكرات ، وإباحة الربا والزنى وإشاعة الخلاعة ، والتكشف ، وظهور الكاسيات العاريات ، المميلات المائلات .

---

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣ . (٢) النساء : ٣٦ .

ومثل: ترك الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم، كما نرى اليوم خلال الأمم التى لا تعرف عن الإسلام شيئاً، أو تعرف صورة مشوهة منفرة عنه، والمسلمون عامة -والعرب خاصة - مسؤولون عن توصيل الدعوة سليمة مشوقة إلى هؤلاء.

ومثل: ترك إقامة العدل بين الناس، وإيتاء كل ذى حق حقه، وإقامة الموازين القسط بين الحاكم والمحكوم، ورعاية حقوق الإنسان، وتمكين كل إنسان أن يقول رأيه بصراحه، ويدلى بصوته بنزاهة، ويرشح نفسه إن أراد، ويعارض ما يراه خطلا إن شاء.

ومثل ترك أعداء الأمة يأكلون حقوقها، ويحتلون أرضها، ويتحكمون فى رقاب أهلها، وترك الدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء، والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا.

ومثل ترك الأمة ممزقة، لا تجمعها راية، ولا تضمها رابطة قوية، مع إيجاب الإسلام، أن تكون مرجعيتها واحدة، ودارها واحدة، وقيادتها واحدة.

هذه آثام وذنوب يغفل آحاد الناس عنها لأنها لا تخصهم شخصيا، ولكنهم مسؤولون عنها بصفتهم أعضاء فى جسم الأمة.

وفى مقابل ترك هذه المأمورات: يوجد فعل المحظورات، وهى المحرمات التى حرمها الله تعالى: من المأكولات والمشروبات والملبوسات والأدوات والمعاملات والتصرفات.

وقد أسرف أهل الجاهلية فى التحليل والتحريم، فحرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله كما قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٢).

---

(١) الأنعام: ١٤٠.

(٢) يونس: ٥٩.

﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾[1] .

ولقد بين القرآن أن من أوصاف رسول الله ﷺ المعروفة عند أهل الكتاب : التوراة والإنجيل أنه : ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ﴾[2] .

فالتحريم فى الإسلام يتبع الخبث والضرر ، وليس كما كان فى اليهودية ، حيث حرم الله عليهم بعض الطيبات ، عقوبة من الله لهم على بغيهم وتجاوزاتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾[3] .

ومن المقرر عند المسلمين : أن الأصل فى الأشياء - ولاسيما المنافع - والتصرفات ، ولاسيما الدنيوية والعادية ، منها : الإذن والإباحة - فلا يسأل المسلم : لماذا أبيح هذا ؟ لأنه هو الأصل ، وما جاء على الأصل لا يسأل عن علته ، إنما يسأل : لماذا حرم هذا ؟ .

وقد بين الإسلام الحلال من الحرام ، كما جاء فى الحديث المتفق عليه : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما كثير من المشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه » .

وقد كتبنا كتابنا « الحلال والحرام فى الإسلام » لنبين للناس ما يحرم على المسلم فى حياته الفردية الخاصة ، وحياته الأسرية ، وحياته الاجتماعية ، حتى لا يسقط المسلم فى هوة المحرمات من حيث لا يدرى .

* * *

(١) النحل : ١١٦ .
(٢) الأعراف : ١٥٧ .
(٣) النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

ذنوب الجوارح وذنوب القلوب

كثير من الناس لا يكادون يعرفون من المعاصى والذنوب ، إلا ما يدركه الحس ، وما يتعلق بالجوارح الظاهرة ، من معاصى الأيدى والأرجل ، والأعين والآذان ، والألسنة والأنوف ، ونحوها مما يتصل بشهوتى البطن والفرج ، والغرائز الدنيا للإنسان .

ولا يكاد يخطر ببال هؤلاء : الذنوب والمعاصى الأخرى التى تتعلق بالقلوب والأفئدة ، والتى لا تدخل ، فيما تراه الأبصار ، أو تسمعه الآذان ، أو تلمسه الأيدى ، أو تشمه الأنوف ، أو تتذوقه الألسنة .

فى القسم الأول تقع معاصى العين من النظر إلى ما حرم الله ، من العورات ، ومن النساء غير المحارم .

ومعاصى الأذن من الاستماع إلى ما حرم الله من آفات اللسان ، فالمستمع شريك المتكلم .

ومعاصى اللسان ، من الكلام بما حرم الله من الآفات التى بلغ بها الإمام الغزالى عشرين آفة : من الكذب والغيبة والنميمة والسخرية واليمين الفاجرة والوعد الكاذب ، والخوض فى الباطل ، والكلام فيما لا يعنى وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وشهادة الزور ، والنياحة ، واللعن والسب ... إلخ .

ومعاصى اليد من البطش والضرب بغير حق ، والقتل ، ومصافحة أعداء الله ، وكتابة ما لا يجوز كتابته ، مما يروج الباطل أو يشيع الفاحشة ، وينشر الفساد .

ومعاصى الرجل ، من المشى إلى معصية الله ، وإلى زيارة ظالم أو فاجر ، ومن السفر فى إثم وعدوان .

ومعاصى الفرج ، من الزنى وعمل قوم لوط ، وإتيان امرأته فى دبرها ، أو فى المحيض ، وهو أذى كما قال الله .

ومعاصى البطن ، من الأكل والشرب مما حرم الله ، مثل أكل الخنزير ، وشرب الخمر ، وتعاطى المخدرات ، وتناول التبغ (التدخين) وأكل المال الحرام من الربا ، أو الميسر ، أو بيع المحرمات ، أو الاحتكار ، أو قبول الرشوة أو غيرها من وسائل أكل مال الناس بالباطل .

وهذه الأعمال كلها محرمات ومعاص معلومة ، وبعضها يعتبر من عظائم الآثام ، وكبائر الذنوب ، ولكنها جميعا تدخل فى المعاصى الظاهرة ، أو معاصى الجوارح ، أو ظاهر الإثم ، والمسلم مأمور أن يجتنب ظاهر الإثم وباطنه جميعا ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١) .

بل إن المعاصى الباطنة أشد خطرا من المعاصى الظاهرة ، وبعبارة أخرى : معاصى القلوب أشد خطرا من معاصى الجوارح ، كما أن طاعات القلوب أهم وأعظم من طاعات الجوارح ، حتى إن أعمال الجوارح كلها لا تقبل إلا بعمل قلبى ، وهو النية والإخلاص .

ونقصد بمعاصى القلوب ما كانت آلته القلب ، مثل : الكبر ، العجب ، الغرور ، الرياء ، الشح ، حب الدنيا ، حب المال والجاه ، الحسد ، البغضاء ، الغضب ، ونحوها ، مما سماه الإمام الغزالى فى (إحيائه) : المهلكات ، أخذا من الحديث الشريف : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

---

(١) الأنعام : ١٢٠ .

وإنما اشتد خطر هذه المعاصى والذنوب لعدة أمور :

أولها : أنها تتعلق بالقلب ، والقلب هو حقيقة الإنسان ، فليس الإنسان هو الغلاف الجسدى الطينى الذى يأكل ويشرب وينمو ، بل هو الجوهرة التى تسكنه ، والتى نسميها : القلب أو الروح أو الفؤاد ، أو ما شئت من الأسماء . وفى هذا قال عليه الصلاة والسلام : « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » متفق عليه عن النعمان بن بشير .

وقال : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم .

وجعل القرآن أساس النجاة فى الآخرة هو سلامة القلب ، كما قال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] .

وسلامة القلب تعنى : سلامته من الشرك جليه وخفيه ، ومن النفاق أكبره ، وأصغره ، ومن الآفات الأخرى التى تلوثه ، من الكبر والحسد والحقد ، وغيرها .

وقال ابن القيم : سلامته من خمسة أشياء : من الشرك الذى يناقض التوحيد ومن البدعة التى تناقض السنة ، ومن الشهوة التى تخالف الأمر ، ومن الغفلة التي تناقض الذكر ، ومن الهوى الذى يناقض التجريد والإخلاص .

ثانيها : أن هذه الذنوب والآفات القلبية ، هى التى تدفع إلى معاصى الجوارح ، فكل هذه المعاصى الظاهرة إنما يدفع إليها : اتباع الهوى ، أو حب الدنيا ، أو الحسد ، أو الكبر ، أو حب المال والثروة ، أو حب الجاه والشهرة ، أو غير ذلك .

حتى الكفر نفسه ، كثيرا ما يدفع إليه الحسد ، كما حدث لليهود ، فقد قال

---

(١) الشعراء : ٨٧ - ٨٩ .

تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

أو يدفع إليها الكبر والعلو فى الأرض ، كما قال تعالى عن فرعون وملئه وموقفهم من آيات موسى عليه السلام : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

أو حب الدنيا وزينتها ، كما رأينا ذلك فى قصة هرقل ملك الروم ، وكيف تبين له صدق الرسول ﷺ فى دعوته ، وصحة نبوته ، ثم لما هاج عليه القسس ، غلّب حب ملكه على اتباع الحق ، فباء بإثمه وإثم رعيته .

وإذا نظرت إلى من يقتل نفسا بغير حق ، وجدت وراءه دافعا نفسيا أو قلبيا ، من حقد أو غضب ، أو حب لدنيا ، حتى إن أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية ، كان سببها الحسد ، وذلك فى قصة ابنى آدم ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) إلى أن قال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٤) .

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرة من شهادة زور أو نميمة ، أو غيبة أو غيرها ، فلابد أن وراء تلك المعاصي شهوة نفسية ، وفى هذا جاء الحديث : « إياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » (٥) .

ثالثها : إن المعاصى الظاهرة التى سببها ضعف الإنسان وغفلته ، سرعان ما يتوب منها ، بخلاف المعاصى الباطنة ، التى سببها فساد القلوب ، وتمكن الشر منها ، فقلما يتوب صاحبها منها ، ويرجع عنها .

---

(١) البقرة : ١٠٩ .
(٢) النمل : ١٤ .
(٣) المائدة : ٢٧ .
(٤) المائدة : ٣٠ .
(٥) رواه أبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمر ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٢٦٧٨) .

وهذا هو الفارق بين معصية آدم ، ومعصية إبليس .

معصية آدم كانت معصية جارحة ، حين أكل من الشجرة ، ومعصية إبليس كانت معصية قلب ، حين أبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

معصية آدم كانت زلة عارضة ، نتيجة النسيان وضعف الإرادة ، أما معصية إبليس فكانت غائرة متمكنة ، ساكنة فى أعماقه .

لهذا ما أسرع ما أدرك آدم خطأه واعترف بزلته ، وقرع باب ربه نادما تائبا هو وزوجته ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وَإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

أما إبليس ، فاستمر فى غلوائه ، متمردا على ربه ، مجادلا بالباطل ، حين قال له : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (٢) .

ولهذا كانت عاقبة آدم : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

وكانت عاقبة إبليس : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) .

رابعا : وهذا ثمرة للوجوه السابقة ، وهو تشديد الشرع فى الترهيب من معاصى القلوب ، وآفات النفوس لشدة خطرها ، كما فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » رواه مسلم عن

---

(١) الأعراف : ٢٣ .
(٢) سورة ص : ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) البقرة : ٣٧ .
(٤) سورة ص : ٧٧ ، ٧٨ .

ابن مسعود ، وقوله : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » (١).

وقوله : « لا تغضب » وكررها ثلاثا ، لمن قال له : أوصنى (٢) .

وقوله فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى ، تركته وشركه » (٣) .

وقوله : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » (٤) .

* * *

(١) رواه البزار عن الزبير بإسـناد جيد كما قال المنذرى . انظر : المنتقى (١٦١٥) والهيثمى (٨ / ٣٠) .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة وفى معناه عدة أحاديث - انظر : المنتقى (١٦٥١ - ١٦٥٤) .

(٤) رواه مسلم عن جابر .

الذنوب معاص وبدع

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى معاص وبدع ، وكل منهما ارتكاب لما يسخط الله تعالى ، وشرود عن صراطه المستقيم .

وقد جاء فى الحديث الشريف الذى رواه العرباض بن سارية أن النبى ﷺ قال : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث فى أمرنا (أى فى ديننا) ما ليس منه فهو رد » (٢) أى مردود عليه ، غير مقبول منه ، لأنه تقرب إلى الله بما لم يأمر به ، وشرع فى الدين ما لم يأذن به الله ، فالتعبد فى الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين :

الأولى : ألا يعبد إلا الله .

والثانية : ألا يعبد الله إلا بما شرعه .

والمبتدع عبد الله تعالى بما لم يشرعه .

والتوبة من البدع واجبة ، كالتوبة من جميع المعاصى .

وقد قال السلف : إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن مرتكب المعصية يشعر أنه اقترف ذنبا ومخالفة لأمر الله ، بخلاف فاعل البدعة .

بل الحقيقة أن البدع نوع من المعاصى ، ولكنها معاصٍ لها صفة خاصة ، فإن مرتكبيها يتقربون إلى الله بفعلها ، ويعتقدون فى أنفسهم أنهم بهذه البدع أقرب إلى الله تعالى ممن ينكرونها عليهم .

وهذا هو خطر البدعة حقا ؛ فإن صاحبها ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (٣) .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

(٢) متفق عليه عن عائشة .

(٣) فاطر : ٨ .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (١) .

ولهذا كانت خشية السلف من البدعة أكبر من خشيتهم من المعصية ، وكان تحذيرهم من البدعة أشد ، لأن صاحب المعصية سرعان ما يتوب من معصيته ، فهو يعلم أنها معصية ، وهى تؤرقه وتعذب ضميره ، ويظل هذا الألم النفسى ، وهذا التعذيب الوجدانى يصاحبه ، حتى يتحول إلى ثورة على حياته ، وهذه الثورة هى التوبة .

أما صاحب البدعة ، فهو مستريح إلى سلوكه ، راض عن نفسه ، لا يشعر بألم الذنب ، لأنه فى نظر نفسه غير مذنب ، ولا مخالف ، بل هو متعبد ، وربما مبالغ فى العبادة ، بل ربما كانت عبادته الظاهرة أكثر وأعظم من عبادات الكثيرين من المتدينين ، كما جاء فى الحديث عن الخوارج : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وقيامه إلى قيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم » (٢) .

والبدعة - كما هو معلوم - بدعتان ، أو نوعان :

بدعة قولية أو اعتقادية ، أو بتعبير عصرنا : فكرية ، تمثل انحرافا فى الاعتقاد أو فى الفكر عن المنهج السوى الذى جاء به القرآن والسنة ، واستقر عليه سلف الأمة ، وخير قرونها ، وهى شر النوعين وأخطرهما .

وذلك مثل بدع الفرق الإسلامية المنحرفة عن السنة والجماعة ، مثل الخوارج والشيعة - وخصوصا الغلاة منهم - والجبرية والقدرية والمرجئة ، وغيرهم ، على تفاوت بينهم فى مدى القرب أو البعد من حقيقة الإسلام ، ونهجه القويم فى العقيدة والسلوك ، ومثل الدعوة إلى العلمانية فى عصرنا،والقول بأن لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة ، والدعوة إلى إلغاء الطلاق ، وتعدد الزوجات ، أو إلى التسوية بين الابن والبنت فى الميراث .

---

(١) الكهف : ١٠٤ . (٢) متفق عليه .

وبعض هذه البدع قد يغلظ ويكبـــر ، حتى ينتهى إلى درجة الكفر ، والعياذ بالله .

فالقول بأن البعث فى الآخرة روحانى لاجسمانى ، وإنه لا توجد جنة حسية ، ولا نار حسية ، ولا نعيم مادى ، ولا عذاب مادى .

أو القول بأن الله لا يعلم جزئيات ما يجرى فى الكون .

أو القول بحلول الله فى بعض خلقه ، أو بعـدم الثنائية فى الوجـود ، بمعنى أنه لا يوجد خالق ومخلوق ، ورب ومـربوب ، وعـابد ومعبود ، إنما هووجود واحد .

وهو ظاهر ما ذهب إليه الحلاج فى نظرية الحلول ، وابن عربى فى نظرية وحدة الوجود .

وقول بعض الناس فى عصرنا : إن القرآن بمجرد نزوله انتقل من الإلهية إلى البشرية ، وأصبح نصًّا بشريا ! وقول بعضهم بالتسوية بين الأولاد فى الميراث لا فرق بين ذكر وأنثى .

والنوع الثانى هو : البدعة العملية كأن يخترع عبادة من عنده لم يشرعها الله ولا رسوله ، أو يضيف إلى العبادة المشروعة ما ليس منها مثل (صلاة الرغائب) التى ابتدعها بعض الناس فى أول كل شهر رجب .

رمثل الصيام عن الكلام تعبدا ، أو الصيام عن أكل اللحوم أو كل ما كان من ذى روح ، تعبدًا وتقربا إلى الله ، مثل أكل البيض وشرب اللبن ، وتناول منتجات الألبان .

ومثل الصيام أو الإمساك عن الطعام والشراب قبل الفجر بثلث ساعة أو عشر دقائق ، أو نحو ذلك احتياطا ، أو الإمساك عن المبادرة إلى الإفطار بعد المغرب مبالغة فى الاحتياط .

والبدعة العملية قسمان أيضًا : إيجابية وسـلبية ، وبعبارة أخرى : فعلية

وتركية ، والفعلية هى التى تتناول عملا بالفعل ، مثل الصلاة أو الصيام أو الذكر ، أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله ، وهو غير مشروع ، ويدخل فيما شرع من الدين مما لم يأذن به الله سبحانه .

والتركية : ما كانت تركا لعمل مشروع ، واجب أو مستحب أو مباح ، وذلك مثل ترك الزواج أو ترك النوم بالليل ، أو ترك الإفطار فى بعض الأيام - مثل الثلاثة الذين أنكر عليهم النبى ﷺ الذين قال أحدهم : أنا أقوم الليل فلا أنام ، وقال الثانى : أنا أصوم الدهر فلا أفطر ، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج .. فبلغ النبى ﷺ مقالتهم ، فخطبهم قائلا : إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » متفق عليه عن أنس .

* * *

الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية

كما أن من الطاعات والحسنات ما هو قاصر لا يؤثر إلا فى صاحبه مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والذكر وتلاوة القرآن ، ومنها ما يتعدى نفعه إلى الغير ، مثل الزكاة والصدقات وبر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الجار والمسكين وابن السبيل .

فكذلك الذنوب والمعاصى والسيئات ، منها ما هو قاصر لا يؤثر إلا فى صاحبه ، ولا يتعدى تأثيره إلى غيره .

ومنها ما هو متعدى التأثير بصورة أو بأخرى ، إلى مدى يقرب أو يبعد .

والذنوب المتعدية التأثير ، قد يكون تعديها أفقيا ، وقد يكون رأسيا ، وبعبارة أخرى : قد يكون التعدى فى سَعة المكان ، وقد يكون فى امتداد الزمان .

الذنوب الممتدة فى المكان :

روى البخارى فى حديث سمرة بن جندب الطويل ، الذى رأى فيه النبى ﷺ عقوبات أرباب الذنوب فى الآخرة ، وكيف يعذبون عليها ، وقص فى الصباح على أصحابه هذه الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ووحْى كما هو معلوم ، ومما جاء فى هذا الحديث أن الملكين اللذين ابتعثاه قالا له : انطلق ، انطلق ، قال : فأتينا على رجل مستلق على قفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه ، فيشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، قال : فما يفرغ من ذلك الجانب ، حتى يصح ذلك الجانب ، كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى . . . » .

ثم بعد أن رأى ما رأى سـأل الرسول الملكين أن يفسرا له ما رآه ، فكان مما قالا له :

« وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته ، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق » .

فهذا الكذاب يعذب هذا العذاب الشنيع الأليم ، لأن كذبته لا تقف عند شخص أو شخصين ، بل إنها لتتسع وتنتشر حتى تبلغ الآفاق ، مشرِّقة ومغربة .

وأبرز من ينطبق عليه هذا فى عصرنا : الصحفيون الذين ينشرون الأكاذيب ، فتطير فى العالم كله ، وتنقلها وكالات الأنباء ، فإذا هى تملأ الدنيا .

وكذلك نجد معظم ذنوب أهل القلم ، وأهل الفن ، وأهل الإعلام ، فى عصرنا من هذا النوع المتعدى ، الذى يمتد ويتسع أفقيا ، بما يملكه عصرنا من وسائل وأدوات قادرة على توسيع نطاق التأثير ، وتبليغه إلى آفاق العالم .

ومن الذنوب المتعدية : ذنوب الأمراء والولاة والحكام ، الذين يظلمون العباد ، ويطغون فى البلاد ، فيكثرون فيها الفساد ، وبخاصة حكام زمننا الذين وفرت لهم علوم العصر وتكنولوجيته : القدرة الهائلة على التأثير فى الشعوب ، وتكوين أفكارها وأذواقها وميولها ، عن طريق مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام .

وإذا كان قد روى فى الحديث « أن يوما من والٍ أو إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة » وذلك لما قد يزيل فيه من مظالم ، وما يقيم فيه من حدود ، وما يرد فيه من حقوق ، وما يقرر فيه من أحكام عادلة ، ومبادىء سامية ، وقواعد لحماية الأنفس والأعراض والأموال ، وقواعد لرعاية العقائد والأخلاق والآداب ، وحماية المجتمع من الرذائل والمفاسد والشرور .. فلا غرو أن يكون اليوم الواحد من هذا الحاكم العادل يوازى ، بل يفضل عبادة ستين سنة من غيره .

إذا كان هذا فى الوالى العادل مقابله : أن يوما من والٍ أو حاكم ظالم أسوأ

من ذنوب ستين سنة من غيره ، وذلك لما قد يصدر فى هذا اليوم الواحد من قرارات جائرة ، وما يقرره من قواعد ومناهج وأوامر مضرة بالعقائد ، أو مدمرة للأخلاق ، أو مجرئة على معاصى الله ، ناشرة للرذائل ، أو مشيعة للشبهات والأفكار المضلة أو مروجة للأباطيل المستوردة من خارج الأمة .. إلى غير ذلك مما يتصور ظهوره وحدوثه على أيدى حكام اليوم ، ولا سيما فى البلدان التى للحكام فيها سلطة شبه مطلقة .

إن هؤلاء لا يحملون وزر أنفسهم فقط ، بل يحملون وزر شعوبهم الذين أضلوهم عن الحق ، وزينوا لهم الباطل ، حتى اتبعوهم فى ضلالهم الفكرى ، وغيهم السلوكى ، وقد قيل قديما : الناس على دين ملوكهم ! ولم يكن لملوك الأمس من التأثير المباشر وغير المباشر : ما لحكام اليوم .

ولهذا أرسل النبى ﷺ رسائله إلى ملوك عصره ، وأمرائه ودعاهم إلى الإسلام ، وحملهم - إذا لم يستجيبوا لدعوته - إثمهم وإثم رعيتهم معهم فهو قد حمل (كسرى) إثم الفرس ، وحمل (قيصر) إثم البريسيين أى الفلاحين والجماهير الغافلة من الروم .. وحمل المقوقس فى مصر إثم القبط .. وهكذا .

والقرآن الكريم يحمل الدعاة إلى الضلال والصادين عن سبيل الله وزر من أضلوهم وصدوهم ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (١) .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ

---

(١) النحل : ٨٨ . (٢) النحل : ٢٥ .

وَمَاهُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

ووزر كل زعيم أو حاكم من هؤلاء الذين زينوا لشعوبهم الباطل ، وأضلوهم عن الحق ، وصدوهم عن السبيل ، يتفاوت بتفاوت عدد من أضلهم ، ومدى هذا الضلال ، ومدى تأثيره فيه ، فوال فى محافظة ، أو أمير فى بلد صغير ، ليس كرئيس فى بلد مقداره سبعون مليونا ، أو مائة مليون ، أو مائتا مليون ، أو ألف مليون ، وحاكم متسلط على شعبه ، يقودهم بعصاه ، أو بسيفه ، ليس كحاكم يشاركه الناس فى السلطة ، ولهذا كان فرعون المتأله فى الأرض أشد عذابا من غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ (٢) .

وما ذلك إلا لدوره الأكبر فى الإضلال والإفساد والطغيان ، قال تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ (٣) ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾(٤) ، ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (٥) .

وكذا قال تعالى عن فرعون وهامان : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ (٦) .

وما يقال عن زعماء السياسة ، يقال عن زعماء الفكر ، من دعاة الضلالة وأئمة الكفر ، ورؤوس الفتنة ، الذين يسوِّقون الإلحاد ، ويشيعون الانحلال ، وينشرون الفساد : بألسنتهم وأقلامهم وأدواتهم وألحانهم وإمكاناتهم العلمية والفنية ، ويجندون مواهبهم فيما يبغض الله ، وما يهدى إلى النار ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِى

---

(١) العنكبوت : ١٢ ، ١٣ .
(٢) غافر : ٤٦ .
(٣) طه : ٧٩ .
(٤) الزخرف : ٥٤ .
(٥) هود : ٩٨ .
(٦) القصص : ٤١ .

الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١) .

وإمام هؤلاء ، وزعيمهم الأول ، وقائدهم الأكبر : إبليس لعنه الله ، فهو الذى قال لربه ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخْلَصِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ لَّعَنَهُ اللهُ ، وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾(٣) وهؤلاء هم جنود إبليس وتلامذته فى التزيين والإغواء والإضلال .

الذنوب الممتدة فى الزمان :

وكما تمتد الذنوب والخطايا أفقيا ومكانيا ، فإنها تمتد وتتسع رأسيا وزمانيا ، فمن الخطايا والمعاصى ما لا ينتهى بارتكابه ، بل يستمر ويبقى زمنا يقصر أو يطول ، وقد يعمر قرونا ، وقد يستمر إلى يوم القيامة .

ومن هنا نقل عن السلف رضى الله عنهم : طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ، وويل لمن إذا مات ظلت ذنوبه من بعده !

فكما أن من الناس من يموت وتبقى حسناته من بعده ، تضيف عمرا بل أعمارا إلى عمره : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو سنة حسنة سنها ، فعمل الناس بها من بعده ، فله أجرها وأجر كل من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً .

كذلك فى الجانب الآخر ، نجد من سن سنة سيئة ، فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، لا ينقص من أوزارهم شيئاً .

فالأول إمام فى الخير والهدى ، وهذا إمام فى الشر والضلالة ، كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾(٤) فى مقابل من قال فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (٥) .

---

(١) الحج : ٨ - ١٠ .
(٢) الحجر : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) النساء : ١١٨ ، ١١٩ .
(٤) القصص : ٤١ .
(٥) السجدة : ٢٤ .

ولهذا قال ﷺ : « ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ، لأنه أول من سن القتل » [1] فهذا ابن آدم الشرير الذى قتل أخاه فى فجر تاريخ البشرية: قد سنّ سنة القتل لمن بعده ، وأيا كان صغر هذا الكفل من كل جريمة قتل ، فإنه يحمل جزءًا من ملايين الجرائم وضحايا الحروب ونحوها .

وكل من نشر ضلالة فى الناس ، أفسدت فكرهم ، أو أوهنت إيمانهم ، أو ألقت فى عقولهم شبهات ، سواء بالكلمة المسموعة فى شريط ، أو المكتوبة فى صحيفة أو فى كتاب ، أو نقلها الناس عنه بعضهم عن بعض ، فهو محاسب على هذه الضلالة ، وإن مات من سنين أو عقود أو قرون .

ومثله كل من روَّج بدعة قولية أو عملية ، فإن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وكذلك كل من روَّج فسادا خلقيا ، يجرىء الناس على الفسوق ويغريهم بالانحراف والإثم ، عن طريق قصة ماجنة ، أو مسرحية فاجرة ، أو رقصة داعرة أو أغنية هابطة ، أو مقالة ساقطة ، أو صورة فاضحة ، أو بذاءة واضحة ، أو نحو ذلك مما يقع فيه كثير من العابثين والممثلين والمطربين والملحنين والمصورين من الرجال والنساء على السواء ، من أهل القلم أو أهل الفن والإعلام .

* * *

إن الذى أفسد الحياة ، وعمى الحقائق على البشر ، هم شياطين الإنس ، الذين أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، فسنوا للناس سننًا ، ووضعوا لهم تقاليد ، وهيأوا لهم مناهج ، وابتدعوا لهم مؤسسات ، لإغرائهم بالضلال ، وثنى أعنّتهم عن الهدى ، وإقناعهم بالباطل ، وتعويقهم عن طريق الحق ، وتزيين الفجور لهم ، وتثبيطهم عن سبيل التقوى .

(١) رواه البخاري .

وفى هذا صحت الأحاديث النبوية : « من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » [1] .

« من دعا إلى هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من تبعه إلى يوم القيامة » [2] .

* * *

(١ ، ٢) رواهما مسلم .

الذنوب المتعلقة بحقوق الله والمتعلقة بحقوق العباد

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الله عز وجل ، وما يتعلق بحقوق العباد .

ومن الكلمات المشهورة فى محيط العلماء ، قولهم : حقوق الله مبنية على المسامحة ، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة .

ذلك أن الله تعالى جواد كريم ، عفو غفور ، غنى عن العالمين ، بل هو أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين ، فلا عجب أن يسامح فى حقه ، ويعفو عمن فرط فى جنبه ، بأدنى رجعة إليه ، أو بمجرد ابتهال وتضرع لجنابه ، أو بغير شىء أصلا إن شاء .

أما الإنسان فهو شحيح قتور بطبعه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ (٢) ، وخصوصا فى يوم القيامة ، فهو يوم الأنانية المطلقة ، لا يفكر كل إنسان فيه إلا فى نفسه ، ونجاة نفسه ، وقد يحتاج إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزان حسناته ، فيستحق بها دخول الجنة ، وقد يثقل ميزان سيئاته بسيئة واحدة ، فيدخل بها النار .

لهذا يقول كل أمرىء فى هذا اليوم : نفسى نفسى : ﴿ لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِه وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِده شَيْئًا ﴾ (٣) ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٤) .

فما كان من الذنوب والمعاصى من حقوق الله تعالى ، مثل ترك بعض المأمورات

---

(١) النساء : ١٢٨ .
(٢) الإسراء : ١٠٠ .
(٣) لقمان : ٣٣ .
(٤) عبس : ٣٤ - ٣٧ .

الشخصية أو ارتكاب بعض المنهيات ، مثل شرب الخمر ، وسماع الملاهى ، وإيذاء الحيوان ، وإيذاء الإنسان نفسه ، وتبذيره ماله ، وارتكاب بعض المنهيات الشخصية ، مثل الوشم ، ووصل الشعر ، ونمص الجفون ، ووشر الأسنان ، وعمل جراحات التجميل ، التى لا ضرورة لها ، وتشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال ، ونحوها . . فالتوبة منها تتحقق بالندم والإقلاع والعزم .

أما ما كان من حقوق العباد ، ولا سيما الحقوق المالية ، فلا يكفى فيه الندم ، والعزم والإقلاع ، بل لابد من ردها إلى أصحابها ، أو استحلالهم ، أى طلب عفوهم وتنازلهم عن حقهم لله تعالى ، وإلا ظلت هذه الحقوق ديونا لأربابها فى أعناق المدينين ، حتى يتقاضوها يوم القيامة من حسنات خصومهم حتى يستوفوا مالهم ، فإن لم تف الحسنات، طرحوا من سيئاتهم على ظالميهم حتى يأخذوا حقهم .

وهذا هو « المفلس » الذى عرّفه لنا الحديث الصحيح حين قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال : إن المفلس من أمتى : من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، ويعطى هذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »[1] .

فقد كان هذا - بما له من طاعات وحسنات - فى عداد الأغنياء وأصحاب الرصيد ، ولكن رصيده من الصالحات قد ضاع كله فى قضاء حقوق الناس فى يوم لا يسامح فيه أحد أحداً ، ولا يتقاضى الناس حقوقهم إلا بعملة واحدة ، هى الحسنات والسيئات .

ومن أجل هذا أمر النبى ﷺ كل من ظلم الناس شيئا ، أو أخذ منهم حقا

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

من حقوقهم المادية أو الأدبية : أن يصفى حسابه مع من ظلمه فى الدنيا ، قبل أن يصفّى فى الآخرة ، وذلك بأن يتحلل من صاحب الحق ، أو صاحب المظلمة . ومعنى التحلل : طلب المسامحة والعفو منه ، أو المصالحة على شيء يقبله .

وفى هذا قال عليه الصلاة والسلام : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عِرْض أو من شيء ، فليتحلله منه اليوم ، من قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم ،إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه ، فحمل عليه » (١) .

شمل الحديث الحقوق الأدبية مثل النيل من عرض الإنسان ، وهو ما نعبر عنه اليوم بالكرامة والسمعة ، سواء فى نفسه أم فى أهله ومن يعيَّر بهم ، كما شمل الحقوق المادية والمالية ، ولذا قال : « أو من شيء » .

ولخطورة الحقوق المالية قال ﷺ : « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين » (٢) .

فالشهادة فى سبيل الله ، هى أعلى ما يطلبه المسلم من ربه ، ومنزلة الشهيد عند الله لا تدانيها منزلة بعد منزلة النبوة والصديقية ، ومع هذا يغفر الله بها كل الذنوب ما عدا (الديون) فإن أصحابها يطالبون بها يوم الحساب ، وإن كان المأمول من سعة فضل الله تعالى أن يغطّى ثواب الشهادة ما يستحقه الدائنون .

وعن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم ، فذكر أن الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بالله : أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن قلت فى سبيل الله تكفر عنّى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، إن قتلت فى سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » ثم قال رسول الله : « كيف قلت ؟ » قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله ، أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

الله ﷺ : « نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، إلا الدين ، فإن جبرائيل قال لى ذلك » (١) .

فانظر كيف استدرك أمين الوحى جبريل عليه السلام ، على النبى ﷺ ، فى فصحح الرسول الكريم ما قاله للرجل السائل عن الشهادة ، واستثنى (الدَّيْنَ) مما تكفره من الخطايا .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : كان رسول الله ﷺ ، قاعدا حيث توضع الجنائز ، فرفع رأسه قِبَلَ السماء، ثم خفض بصره ، فوضع يده على جبهته ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! ما أنزل من التشديد ؟! قال : فعرفنا وسكتنا ، حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلت : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : فى الدَّيْن ، والذى نفسى بيده ، لو قتل رجل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل ، ثم عاش ، ثم قتل : ما دخل الجنة حتى يقضى دينه ! » (٢) .

فهل رأيت تشديدا أبلغ وأعظم من هذا التشديد فى أمر الدين ؟ وهذا كله يدلنا بجلاء على أهمية حقوق العباد ، والذنوب المتعلقة بها ، ولا سيما الحقوق المالية .

يؤكد هذا ما جاء من أحاديث فى شأن بعض الشهداء الذين غلّوا من الغنائم قبل قسمتها ، فرآهم النبى عليه الصلاة والسلام وقد اشتعل ما أخذوه نارا تحرقهم ، لأنهم أخذوا ما ليس لهم بحق من المال العام .

فعن أبى هريرة أن رجلا قتل فى غزوة خيبر ، فقال الناس : هنيئًا له الجنة : (أى لأنه أدرك درجة الشهادة فى سبيل الله) فقال رسول الله ﷺ : « كلا ،

---

(١) رواه مسلم عن أبى قتادة .

(٢) رواه النسائى فى كتاب البيوع : باب التغليظ فى الدين (٧ / ٣١٤ ، ٣١٥) والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره المنذرى والذهبى، انظر: المستدرك (٢ : ٢٥) والمنتقى من الترغيب حديث (١٠٢٢) وذكره فى صحيح الجامع الصغير .

والذى نفسى بيده ، إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم ، لتشتمل عليه نارا » (١) .

وعن ابن عباس قال : حدثنى عمر ، قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبى ﷺ ، فقالوا : فلان شهيد ، وفلان شهيد ، حتى مروا على رجل ، فقالوا : فلان شهيد ، فقال رسول الله ﷺ : « كلا ، إنى رأيته فى النار ، فى بردة غلّها - أو عباءة » (٢) .

وهذا يدلنا على أن الحقوق العامة كالحقوق الخاصة ، لا يجوز أخذها بغير حق .

ولا ينفع آخذَ المال بغير حق : أن يتصدق به ، لأن صدقته غير مقبولة عند الله ، فقد تصدق بما لا يملك ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « لا يقبل الله صدقة من غلول » (٣) .

إن الصدقة المقبولة هى التى تخرج من مال طيب ، كما قال ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا » (٤) .

وقد رووا عن الإمام الفقيه الورع سفيان الثورى رضي الله عنه : أنه اعتبر الكبائر : ما تعلق بحقوق العباد ، والصغائر : ما تعلق بحق الله سبحانه وتعالى .

نقل ذلك عنه العلامة ابن القيم فى (المدارج) قال :

قال سفيان الثورى : الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد ، والصغائر : ما كان بينك وبين الله ، لأن الله كريم يعفو ، واحتج بحديث يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ينادى منادٍ من قبل بُطنان العرش يوم القيامة : يا أمة محمد ، إن الله عز وجل قد عفا

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم . (٣) رواه مسلم .
(٤) رواه مسلم .

عنكم جميعكم ، المؤمنين والمؤمنات ، فتواهبوا المظالم بينكم ، وادخلوا الجنة برحمتى » [1] .

قلت : مراد سفيان : أن الذنوب التى بين العبد وبين الله أسهل أمراً من مظالم العباد ، فإنها تزول بالاستغفار ، والعفو والشفاعة وغيرها ، وأما مظالم العباد : فلابد من استيفائها ، وفى المعجم للطبرانى « الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئًا ، وهو الشرك بالله ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [2] وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وهو مظالم العباد بعضهم بعضًا ، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين الله » .

ومعلوم أن هذا الديوان مشتمل على الكبائر والصغائر ، لكن مستحقه أكرم الأكرمين ، وما يعفو عنه من حقه ويَهَبه أضعافُ أضعاف ما يستوفيه ، فأمره أسهل من الديوان الذى لا يترك منه شيئًا لعدله ، وإيصال كل حق إلى صاحبه .

* * *

---

(١) حديث أنس ذكره الغزالى فى«الإحياء»فى فضيلة العفو والإحسان،وقال العراقى:أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرى فى كتاب التبصرة والتذكرة وإسناده ضعيف .

(٢) النساء : ٤٨ .

صغائر الذنوب وكبائرها

ذهب بعض العلماء إلى أن المعاصى كلها كبائر ، وكأنهم استعظموا أن يكون المعصىّ هو الله الكبير المتعال ، الخالق الرازق ، ثم تكون معصيته صغيرة ، فرأوا أن كل ما عصى الله به فهو كبيرة .

فإذا كانت إساءة الولد إلى والده ولو بكلمة ، تستعظم وتستهول ، لعظم حق الوالد ، فكيف بحق الرب الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدَّر فهدى ؟

وهذا شعور طيب ، ولا شك ، ولكنه لا ينفى الواقع .

وهو أن المعاصى والذنوب تتفاوت تفاوتا بينا فى مفاسدها وآثارها فى الحياة ، وتتفاوت كذلك فى تأثيرها على القلب وتدنيسه .

كما أن النصوص نفسها بينت بوضوح أن فى المعاصى كبائر وفواحش ، ومنها دون ذلك كما قال تعالى فى وصف مشهد من مشاهد الآخرة : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ (١) .

يقول تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (٢) .

وفى وصف الذين أحسنوا يقول تعالى : ﴿ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ (٣) .

وفى مدح المؤمنين الذين أدخر الله لهم فى الآخرة ما هو خير وأبقى من متاع الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ اللهِ

---

(١) الكهف : ٤٩ . (٢) النساء : ٣١ . (٣) النجم : ٣١ ، ٣٢ .

خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

فلم تطلب هذه الآية ولا تلك اجتناب صغائر الذنوب ، لأن الناس قلما يسلمون من مواقعتها فى حياتهم اليومية ، وإنما اكتفى منهم باجتناب كبائر الإثم والفواحش :

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر » .

وانقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر : ثابت بنصوص القرآن والسنة الصحيحة وإجماع الصحابة والتابعين ، وبالاعتبار والمعقول أيضاً .

وأما ما يحكى عن أبى إسحاق الاسفرائينى أنه قال : الذنوب كلها كبائر ، وليس فيها صغائر ، فليس مراده : أنها مستوية فى الإثم ، بحيث يكون إثم النظر المحرم ، كإثم الوطء فى الحرام ، وإنما المراد : أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِىَ بها كلها كبائر ، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض ، ومع هذا فالأمر فى ذلك لفظى لا يرجع إلى معنى .

قال ابن القيم :

والذى جاء فى لفظ الشارع : تسمية ذلك « لَمَمًا » و « مُحَقّرات » كما فى الحديث « إياكم ومُحقّرات الذنوب » وقد قيل : إن « اللمم » المذكور فى الآية من الكبائر ، حكاه البغوى وغيره .

قالوا : ومعنى الاستثناء : أن يُلِمَّ بالكبيرة مرة ، ثم يتوب منها ، ويقع فيها ثم ينتهى عنها ، لا يتخذها دأبه ، وعلى هذا يكون استثناء « اللمم » من الاجتناب ، إذ معناه : لا يصدر منهم ، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمًا .

---

(١) الشورى : ٣٦ ، ٣٧ .

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر ، وهو منقطع .. أى لكن يقع منهم اللمم .

ثم اختلفوا فى فصلين ، أحدهما : فى « اللمم » ما هو ؟ والثانى : فى « الكبائر » وهل لها عدد يحصرها ، أو حَدٌّ يحدها ؟ فلنذكر شيئًا يتعلق بالفصلين .

معنى اللمم :

فأما « اللمم » فقد روى عن جماعة من السلف : أنه الإلمام بالذنب مرة ، ثم لا يعود إليه ، وإن كان كبيراً ، قال البغوى : هذا قول أبى هريرة ، ومجاهد ، والحسن ، ورواية عطاء عن ابن عباس . قال : وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « اللمم ما دون الشرك » قال السدى : قال أبو صالح : سُئِلْتُ عن قول الله عز وجل « إلا اللمم ؟ » فقلت : « هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوده » فذكرت ذلك لابن عباس فقال « لقد أعانك عليها ملك كريم » .

والجمهور : على أن « اللمم» مادون الكبائر ، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ، كما فى صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال « ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ : إن الله كتب على ابن آدم حَظَّه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين : النظر ، وزنا اللسان : النطق ، والنفس تَمَنّى وتشتهى ، والفرجُ يصدق ذلك أو يكذِّبه » [1] ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة ، وفيه « والعينان زناهما : النظر ، والأذنان : زناهما الاستماع ، واللسان : زناه الكلام ، واليد : زناها البطش ، والرِّجْلُ : زناها الخُطا » [2] .

وقال الكلبى « اللمم » على وجهين ، كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا فى الدنيا ، ولا عذابًا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ، ما لم يبلغ

---

(١) رواه البخارى (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧) .

(٢) هو فى صحيح مسلم (٢٦٥٦) .

الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر : هو الذنب العظيم ، يُلِمُّ به المسلم المرة بعد المرة ، فيتوب منه .

قال سعيد بن المسيب : هو ما ألمَّ بالقلبِ ، أى ما خطر عليه .

وقال الحسين بن الفضل : « اللمم » النظر من غير تعمد ، فهو مغفور ، فإن أعاد النظر ، فليس بلمم ، وهو ذنب ، وقد روى عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا ، وأى عبد لك لا ألمّا » (١) .

وذهبت طائفة ثالثة إلي أن « اللمم » ما فعلوه فى الجاهلية قبل إسلامهم ، فالله لا يؤاخذهم به ، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين « أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا ، فأنزل الله هذه الآية » وهذا قول زيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم .

والصحيح : قول الجمهور : أن اللمم صغائر الذنوب ، كالنظرة ، والغمزة ، والقبلة ، ونحو ذلك ، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، والشعبى ، ولا ينافى هذا قول أبى هريرة ، وابن عباس فى الرواية الأخرى « أن يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها » فإن « اللمم » إما أنه يتناول هذا وهذا ، ويكون على وجهين ، كما قال الكلبى ، أو أن أبا هريرة ، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة - ولم يصر عليها ، بل حصلت منه فلتة في عمره - باللمم ، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم فى حق من تكررت منه مراراً عديدة ، وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم ، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث ، وإنما يُخاف العَنَتُ على من اتخذ الذنب عادته ، وتكرر منه مراراً كثيرة ، وفى ذلك آثار سلفية ، والاعتبار بالواقع يدل على هذا ، ويذكر عن على ﷺ : أنه « دُفع إليه سارق ، فأمر بقطع يده ، فقال :

---

(١) رواه الترمذى (٣٢٨٠) والحاكم (٢ / ٤٩٢) .

يا أمير المؤمنين ، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت ، فلما قطعت يده قال : اصدقني ، كم لك بهذه المرة ؟ فقال : كذا وكذا مرة ؟ فقال : صدقت ، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب » أو كما قال ، فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم ، فهو من جنسه ونظيره ، فالقولان عن أبي هريرة ، وابن عباس ، متفقان غير مختلفين [1] ، والله أعلم .

اختلاف السلف في معنى الكبيرة وعددها :

وأما الكبائر : فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد ، وأقوالهم متقاربة .

وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعُقوقُ الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » [2] .

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً - قالوا : بلى ، يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً - فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » [3].

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال : قلت « يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ، قال قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال

---

(١) انظر : المدارج : ١ / ٣١٥ - ٣١٨ .

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٧٥) ولم يخرجه مسلم كما في « تحفة الأشراف » ٦ / ٣٤٦ للمزِّي ، ورواه أحمد ٢ / ٢٠١ والترمذي (٣٠٢٤) والنسائي ٧ / ٨٩ .

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٧٧) ومسلم (٨٧) والترمذي (٢٣٠٢) .

قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك ، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبى ﷺ [1] ﴿ والَّذينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [2] » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » [3] .

وعن عبد الله بن عَمْرٍو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من أكبر الكبائر : أن يسب الرجل والديه ، قالوا : وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه » [4] .

وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن من أكبر الكبائر : استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق » [5] .

وهذه الأحاديث الصحاح : تدلنا على أن الكبائر ليست فى درجة واحدة ، بل هى متفاوتة ، فمنها : ما سماه الرسول (أكبر الكبائر) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « أكبر الكبائر : الشرك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله » .

---

(١) رواه البخارى (٤٤٧٧) ومسلم (١٤٢) والترمذى (٣١٨٢) والنسائى (٧ / ٨٩) وأحمد (١ / ٤٣٤) .

(٢) الفرقان : ٦٨ .

(٣) رواه البخارى (٦٨٥٧) ومسلم (٨٩) .

(٤) رواه البخارى (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠) .

(٥) رواه أبو داود (٤٨٧٧) ، والبزار (٣٥٦٩) و (٣٥٧٠) بأسانيد يشد بعضها بعضاً ، وله شاهد من حديث معيذ بن زيد عند أبى داود (٤٨٧٦) وأحمد (١ / ١٩٠) وإسناده صحيح .

قال سعيد بن جبير : سأل رجل ابن عباس عن الكبائر : « أسبع هن ؟ قال : هن إلى السبع مئة أقرب ، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » وقال : « كل شيء عصى الله به فهو كبيرة ، من عمل شيئاً منها فليستغفر الله ، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام ، أو جاحداً فريضة أو مكذباً بالقدر » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [1] فهو كبيرة » وقال علي بن أبي طلحة : هي كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب .

وقال الضحاك : هي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا ، أو عذاباً في الآخرة .

وقال الحسين بن الفضل : ما سماه الله في القرآن كبيراً ، أو عظيماً ، نحو قوله في أكل أموال اليتامى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[2]، وفي قتل الأولاد : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[3]،وفي الشرك : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [4] وفي الإفك : ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [5] وفي إيذاء النبي : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا ﴾ [6] .

وقال مالك بن مغول : الكبائر ذنوب أهل البدع ، والسيئات ذنوب أهل السنة .

قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة ، فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع ، وهذا معنى قول بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها .

---

(١) النساء : ٣١ .
(٢) النساء : ٢ .
(٣) الإسراء : ٣١ .
(٤) لقمان : ١٣ .
(٥) النور : ١٦ .
(٦) الأحزاب : ٥٣ .

وقالت فرقة : الصغائر ما دون الحدين ، والكبائر : ما تعلق بها أحد الحدين .

ومرادهم بالحدين : عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة ، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة فى الدنيا ، كالزنى وشرب الخمر ، والسرقة ، والقذف ، أو عليه وعيد فى الآخرة ، كأكل مال اليتيم ، والشرب فى آنية الفضة والذهب ، وقتل الإنسان نفسه ، وخيانته أمانته ، ونحو ذلك ، فهو من الكبائر [1] .

أقول : وهذا هو أقرب التعاريف إلى بيان حقيقة (الكبيرة) فنحن نعرفها بما رتبه الله عليها من إقامة حد أو عقوبة منصوص عليها ، فهذا دليل خطرها وعظمها . وكذلك إذا أوعد عليها بوعيد شديد مثل دخول النار ولعنة الله وغضبه وعذابه العظيم أو الأليم أو نحو ذلك ، ولكن يجب أن يثبت هذا الوعيد بالقرآن الكريم ، أو بالأحاديث الصحيحة الصريحة التى لا خلاف عمليها ، أما الأحاديث المثخنة بالجراح مثل أحاديث الغناء والآلات ولعب الشطرنج ، ونحوها ، مما يختلف العلماء فى ثبوته أو فى دلالته على مجرد التحريم ، فكيف تثبت به الكبيرة ، وأصل التحريم مشكوك فيه ؟! .

* * *

(١) مدارج السالكين ببعض تصرف .

حقائق حول الكبائر والصغائر

١ - الصغيرة تجر إلى الكبيرة :

هناك جملة من الحقائق يجب أن نلم بها حول الكبائر والصغائر :

الحقيقة الأولى : إن الذنوب يفضى بعضها إلى بعض ، والأدنى منها يفضى إلى الأعلى ، فالصغيرة تجر إلى الكبيرة ، والكبيرة قد تجر إلى الكفر ، والعياذ بالله ، ولهذا قالوا : أول ذنب إبليس معصية وآخره كفر ، وأول ذنب قابيل - ابن آدم الشرير - شهوة ، وآخره شقوة .

ولهذا كان تحذير الإسلام من كل ما يؤدى إلى المعصية أو يساعد عليها ، وخصوصا الكبيرة منها ، ومن أجل هذا حرم الخمر قليلها وكثيرها ، ولو قطرة منها ، والكثير هو المقصود بالتحريم ، ولكن القليل يدفع عادة إلى الكثير ، والألف تجر إلى الباء كما يقولون .

وكذلك لعن فى الخمر عشرة ، والمقصود هو منع الشرب والسكر ، ولكنه لعن كل من ساهم فيها وسهل تناولها ، حتى يقطع جذورها ، ويسد الطريق إليها ، ولعل بعض هؤلاء يكون أعظم من الشارب إثما ، مثل مروجها والمتاجر فيها ، وخصوصا مع المخدرات ، وهى جزء من الخمر ، فإن الخمر - كما قال عمر - ما خامر العقل ، فصنع الخمر والمخدرات والاتجار بها أشد آلاف المرات من تعاطيها ، ولهذا اتفق كثير من فقهاء عصرنا على ضرورة عقاب تجار هذه السموم بالقتل (الإعدام) ، قصاصا لهم ، فهم قتلة سفاحون ، ولكن يقتلون شعوبا ، ويدمرون مجتمعات بأسرها ، وهم محاربون لله ورسوله ، وساعون فى الأرض فسادا .

ولعن رسول الله ﷺ - مع آكل الربا - مؤكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء ، أى فى أصل الإثم ، وإن كان الأكل هو المقصود أصلا ، وهؤلاء له تبع لمعاونتهم على الإثم والعدوان .

وحرم الإسلام الزنى ، فإنه كان فاحشة ، وساء سبيلا ، ولكنه حرم كل ما يقرب إلى الزنى ويعين عليه مثل : الخلوة والنظرة بشهوة ، والقبلة ونحوها ، وكذلك التبرج والمغريات بالفاحشة من الأغانى والصور والمشاهد المثيرة .

وهكذا نجد الصغائر تجر إلى الكبائر ، فإذا زلت قدم المكلف ، وسقط فى حفرة المعصية - ولو كانت صغيرة-ولم يتدارك نفسه بسرعة بالتوبة تنهضه من عثرته ، وتقيمه من كبوته ، فسرعان ما تدفع هذه المعصية إلى ثانية ، والثانية إلى الثالثة ، وهُلم جرا ، ويستجرئ عليه الشيطان بمجرد انهزامه أمامه مرة ، وتضعف نفسه الأمارة بالسوء عن المقاومة ، حتى ينتهى إلى الاستسلام لعوامل السوء ، ونوازع الشر ، ويستمرىء هذا الطريق ، ولا يستطيع فطامًا عنه ، وهذا هو الخطر ، الذى يستعاذ بالله منه .

٢ - اجتناب الكبائر يكفر الصغائر :

والحقيقة الثانية من أحكام الكبيرة : أن اجتنابها يكفر الصغائر ، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾[1].

قال ابن كثير : أى إذا اجتنبتم كبائر الآثام التى نهيتم عنها ، كفرنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنة .

وقال الإمام الغزالى : اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة ، إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها ، فكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس ، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع : أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فإن كان عنينا (عاجزا جنسيا) أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادراً ، ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفيرا أصلا ، وكل من لا يشتهى الخمر أصلا ، ولو

(١) النساء : ٣١ .

أبيح له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر ، نعم من يشتهى الخمر ، وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهد عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، لمجاهدته النفس بالكف ، ربما نمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع ..

وينقل العلامة رشيد رضا كلام الغزالى هذا ، وكلامه فى تكفير السيئات بفعل الحسنات المضادة لها ، وإن كل سيئة تمحى بحسنة من جنسها ، إلى آخر ما نقلناه من قبل. ثم يقول: لله دره : ما أدق فهمه لحكمة القرآن ، وتطبيقه على فطرة الإنسان ، ومن وقف على ما ثبت عند علماء الإنسان بعد الغزالى .. فإنه يعجب بما أوتى هذا الرجل من قوة الذهن ، ونفوذ أشعة الفهم [1] .

وتقرير هذه الحقيقة يفيدنا فائدتين كبيرتين ومهمتين فى المجال التربوى :

الأولى : غرس الأمل والرجاء فى سعة رحمة الله تعالى ، وجميل فضله ، وواسع كرمه ، فيكفى أن يجتنب المسلم كبائر الإثم ، ليكفر عنه سيئاته الأخرى ، وجراحاته التى لا يكاد يسلم منها الناس .

عن أنس رضي الله عنه خادم النبى ﷺ قال : لم أر مثل الذى بلغنا عن ربنا تعالى ، لم نخرج له عن كل أهل ومال .. ثم سكت ، ثم قال : والله لقد كلفنا ربنا أهون من ذلك ، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر فما لنا ولها ؟ ثم تلا : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ .. ﴾ الآية [2] .

والثانية : غرس روح السماحة والعفو فى التعامل بين الناس ، وترك التغليظ عليهم ، ومحاسبتهم على كل صغيرة وكبيرة ، فهذا مناف لمعاملة الله تعالى مع عباده ، فلا ينبغى لنا أن نشدد على الناس فى صغائر الذنوب إذا اجتنبوا كبارها ، وقد

---

(١) تفسير المنار جـ ٤ / ٥٥ ، ٥٦ ، طبعة ثانية .

(٢) الأثر رواه الطبرى فى تفسيره بإسناد صحيح برقم (٩٢٣١) ، النساء : ٣١ .

عفا الله تعالى عنها ، وقد عرفنا من نصوص القرآن والسنة أن فى دين الله متسعا لكل من لم يصبح ارتكاب الكبائر خطا ثابتا فى حياته .

ومن روائع الدروس التربوية الإسلامية ما جاء عن أمير المؤمنين عمر ﷺ فى تعليم الناس كيف يتغاضون عن صغائر الذنوب ، وتوافه العيوب ، إذا وقعت ممن يؤدى الفرائض ، ويجتنب الكبائر ، فليس هناك إنسان معصوم ، وكل بنى آدم خطاء ، ولم يخلق الله البشر ملائكة مطهرين .

روى ابن جرير بسنده عن ابن عون عن الحسن البصرى : أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله عز وجل، أمر أن يعمل بها ، لا يعمل بها ! فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك .. فقدم وقدموا معه - فلقى عمر ﷺ ، فقال : متى قدمت ؟

قال : منذ كذا وكذا ..

قال : أبإذن قدمت ؟

(قال الحسن : فلا أدرى كيف رد عليه)

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناساً لقونى بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمر أن يعمل بها ، فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك .

قال : فاجمعهم لى .

قال : فجمعتهم له (قال ابن عون : فى بهو) ، فأخذ أدناهم رجلاً .

فقال : أنشدك بالله ، وبحق الإسلام عليك : أقرأت القرآن كله ؟

قال : نعم .

قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ (يعنى : هل استقصيت العمل به فى تصحيح نيتك وتطهير قلبك ، ومحاسبتك نفسك ؟) .

فقال : اللهم لا . (ولو قال : نعم ، لخصمه) أى: لأفحمه وألزمه الحجة .

قال : فهل أحصيته ببصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك (أى : كلامك) ؟ فهل أحصيته فى أثرك (أى : فى خطواتك ومشيك) ؟

ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، (يعنى : وهو يسألهم : هل استقصيتم العمل بكتاب الله كله فى أنفسكم وجوارحكم ، وأقوالكم وأعمالكم ، وحركاتكم وسكناتكم ؟ وهم بالطبع يجيبون : اللهم لا) فقال : ثكلت عَمْرًا أمه ! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ (أى : بالصورة التى تفهمونها أنتم ، ولم تقيموها فى أنفسكم باعترافكم) .

قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات . . وتلا : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾ (١) .

ثم قال : هل علم أهل المدينة - أو قال : هل علم أحد - بما قدمتم ؟

قالوا : لا .

قال : لو علموا لوعظتُ بكم ! (أى : لجعلتكم عظة ونكالاً لغيركم)

(ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير ، وقال عقبه : إسناد صحيح ومتن حسن) . أ . هـ .

وهذا فى الواقع درس فى التربية ودرس فى السياسة أيضاً ، وفقه السياسة فى الإسلام لا ينفصل عن فقه التربية .

وبهذا الفقه العمرى الواعى لكتاب الله ، حسم أمير المؤمنين رضي الله عنه هذه القضية فى بدايتها ، وسد بابا للتشدد والتنطع لو كان تساهل فيه ، لربما هبت منه رياح فتنة لا يعلم إلا الله مدى عواقبها » (٢) أ . هـ .

وهذا التشدد الذى بدت بذوره فى عهد عمر ، وأطفأ نار فتنته فى مهدها بفقهه

---

(١) النساء : ٣١ .

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف صـ ١٨٤ - ١٨٦ .

وحزمه ، قد ظهر بعد ذلك فى عهد عثمان بقوة أكبر ، وتفاقم واستفحل ، حتى أشعل الفتنة الكبرى ، التى لم يزل يعانى المسلمون إلى اليوم من آثارها .

٣ - الكبيرة قد تصغر بأسباب وملابسات :

وهنا حقيقة ثالثة ينبغى التفطن لها ، نبه عليها العلامة ابن القيم ، وهـــى أن « الكبيرة » قد يقترن بها من الحياء والخوف ، والاستعظام لها - ما يلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة - من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف والاستهانة بها - ما يلحقها بالكبائر ، بل يجعلها فى أعلى رتبها .

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره .

وأيضًا فإنه يعفى للمحب ، ولصاحب الإحسان العظيم ، ما لا يعفى لغيره ، ويسامح بما لا يسامح به غيره .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : انظر إلى موسى- صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها ، وجر بلحية نبى مثله ، وهو هارون ، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد ﷺ ورفعه عليه ، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدو له ، وصدع بأمره ، وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة ، فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر .

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى ، غاضب ربه مرة ، فأخذه وسجنه فى بطن الحوت ، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى ، وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له ، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع !

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله،وتذكر به إذا وقع فى الشدائد ، قال تعالى عن ذى النـون: ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فى بَطْنِهِ إِلَى يَـوْمِ

يُبْعَثُونَ ﴾ [1] وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [2] قال له جبريل : ﴿ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [3] .

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته ، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك ، لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له ، ويسامحه مالا يسامح به المشرك ، وكلما كان توحيد العبد أعظم ، كانت مغفرة الله له أتم ، فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر ذنوبه كلها ، كائنة ما كانت ، ولم يعذب بها .

ولسنا نقول : إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد ، بل كثير منهم يدخل بذنوبه ، على مقدار جرمه ، ثم يخرج منها ، ولا تنافى بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه .

ونزيد هاهنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه .

اعلم أن أشعة « لا إله إلا الله » تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه ، فلها نور ، وتفاوت أهلها فى ذلك النور - قوة ، وضعفاً - لا يحصيه إلا الله تعالى .

فمن الناس : من نور هذه الكلمة فى قلبه كالشمس .

ومنهم : من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى .

ومنهم : من نورها فى قلبه كالمشعل العظيم .

وآخر : كالسراج المضىء ، وآخر كالسراج الضعيف .

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم ، وبين أيديهم ، على هذا المقدار ، بحسب ما فى قلوبهم من نور هذه الكلمة ، علماً وعملاً ، ومعرفة وحالاً .

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد : أحرق من الشبهات والشهوات بحسب

---

(١) الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ . (٢) يونس : ٩٠ . (٣) يونس : ٩١ .

قوته وشدته ، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ، ولا ذنباً ، إلا أحرقه ، وهذا حال الصادق فى توحيده ، الذى لم يشرك بالله شيئاً ، فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها ، فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته ، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر ، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه ، أو حصل أضعافه ، بكسبه ، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس ، ليس كمن فتح لهم خزانته ، وولى الباب ظهره .

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله ، وأن الله رب كل شىء ومليكه ، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون ، بل التوحيد يتضمن - من محبة الله ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع ، والعطاء .

نعم من قالها بلسانه ، غافلاً عن معناها ، معرضاً عن تدبرها ، ولم يواطىء قلبه لسانه ، ولا عرف قدرها وحقيقتها ، راجياً مع ذلك ثوابها ، حطت من خطاياه بحسب ما فى قلبه ، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة ، وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض ، والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً ، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

وتأمل ما قام بقلب قاتل المئة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية ، وحملته - وهو فى تلك الحال - على أن جعل ينوء بصدره ،وهو يعالج سكرات الموت ، فهذا أمر آخر ، وإيمان آخر ، ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة ، وجعل من أهلها .

وقريب من هذا ما قام بقلب البَغِىّ التى رأت ذلك الكلب ، وقد اشتد به العطش يأكل الثرى ، فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة ، وعدم المعين ، وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر ، وملء الماء فى

خفها ، ولم تعبأ بتعرضها للتلف ، وحملها خفها بفيها وهو ملآن ، حتى أمكنها الرقى من البئر ، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه ، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب ، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً ، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء ، فغفر لها ·

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل فى غفلة من هذا الإكسير الكيماوى، الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً [1] ·

٤ - الصغيرة قد تكبر بأسباب وملابسات :

كما أن الكبيرة قد تصغر بما يصحبها من مشاعر الحياء والخوف وعدم الرضا عن النفس ونحوها ، فإن الصغيرة قد تصحبها مشاعر ومظاهر وملابسات معينة تحيلها إلى كبيرة ، كما أن هذه الملابسات نفسها إذا صحبت الكبيرة تجعل إثمها أكبر وخطرها أعظم · وهذه هى الحقيقة الرابعة فى هذا المقام ·

وهذا ما عرض له الإمام الغزالى فى فصل رائع من كتاب (التوبة) من (الإحياء) بين فيه الأمور والأسباب التى تعظم بها الذنوب الصغائر ، وتزداد الكبائر بها كبرا وعظما ، ويحسن أن ننقله هنا بتصرف قليل ·

قال رحمه الله :

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب :

الإصرار والمواظبة :

منها : الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها · ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل [2] » والأشياء تستبان بأضدادها ،وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم

(١) انظر : المدارج : (١ / ٣٢٨) وما بعدها · (٢) متفق عليه من حديث عائشة ·

قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره .

استصغار المعصية :

ومنها : أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة ، وقد جاء فى الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره [1] » .

وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ! وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : إنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات !

---

(١) أخرجه البخارى، من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبى ﷺ ، والآخر عن نفسه ، فذكر هذا وحديث « لله أفرح بتوبة العبد » ولم يبين المرفوع من الموقوف . ولكن فرح الله تعالى بتوبة العبد جاء مرفوعا فى الصحاح .

إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

الفرح بالمعصية :

ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد ، كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه ، كما يقول : أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته : أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبّست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته ، وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها ، فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه .

التهاون بستر الله عليه :

ومنها : أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً ، فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىَ أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

---

(١) المجادلة : ٨ .

إظهار المعصية والتبجح بها :

ومنها : أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه ، أو يأتيه فى مشهد غيره ، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى ســـدله عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن إنضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه ، والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له : صـــارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر ، وفى الخبر « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه ، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه » [1] وهذا لأن من صفات الله ونعمه : أنه يظهر الجميل ، ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهذه النعمة .

وقال بعضهم : لا تذنب فإن كان ولابد فلا ترغب غيرك فيه ، فتذنب ذنبين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالمنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾[2] .

وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه .

معصية العالم والقدوة :

ومنها : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به ، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه ، كلبس العالم الإبريسم (الحرير) وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض ، وتعديه باللسان فى المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يُتبع العالم عليها فيموت العالم ، ويبقى شره مستطيراً فى العالم آمادا متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ، وفى الخبر : « من سن

---

(١) حديث: « كل الناس معافى إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) التوبة : ٦٧ .

سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص من أوزارهم شيئاً »[1] قال تعالى : ﴿ ونَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ ﴾[2] والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل .

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع : يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس ، فيذهبون بها فى الآفاق .

وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة ، تغرق ويغرق أهلها ! وفى الإسرائيليات : أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الإصلاح دهراً ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ، ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟! .

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتُّبعوا ، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا ، وقنع منها باليسير ، ومن الطعام بالقوت ، ومن الكسوة بالخلق ، فيتبع عليه ، ويقتدى به العلماء والعوام ، فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام ، ويكون هو السبب فى جميع ذلك ، فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان ، تتضاعف آثارها : إما بالربح وإما بالخسران [3] .

أسباب وملابسات أخرى لتضخيم الذنوب :

وما ذكره الإمام الغزالى كله مسلم ولا ريب ، ولكن ينبغى أن نضيف إليه أن ثمت أسبابا وملابسات أخرى تؤدى إلى تضخيم الذنوب والمعاصى وخصوصا الكبيرة ، فإنها بهذه الأسباب والملابسات التى تقترن بها تتضخم وتتفاقم ، وتتعاظم عقوبتها عند الله عز وجل .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم فى آداب الكسب .

(٢) يس : ١٢ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين : (٤ / ٣٢ ، ٣٣) بتصرف قليل .

فإذا أخذنا كبيرة كالزنى الذى قال الله فيه : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[1] .

وجدنا أن هذه الكبيرة الفاحشة قد تزداد فحشا بإضافات معينة تلتبس بها .

منها : ما يتصل بالزانى ، فالزانى المحصن غير الزانى العزب ، ولهذا كان حد العزب مائة جلدة كما فى كتاب الله ، وحد المحصن الرجم ، كما ثبت فى السنة ، والزانى الشيخ المسن غير الزانى إذا كان شابا ، فالشباب شعلة من الجنون ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل (فقير) مستكبر »[2] ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة يرتكبون معاصيهم دون حاجة شديدة إليها .

ومنها : ما يتصل بالمزنى بها ، كأن تكون امرأة متزوجة ، فهو يفسدها على زوجها ، ويهتك حرمته ، ويؤذيه أبلغ الأذى ، وقد تحْمل منه ، فيفسد عليه نسبه ، وينسب إليه ولد ليس من صلبه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من خبَّب(أى أفسد)امرأة على زوجها »[3] ولا سيما إذا كانت المرأة مستقيمة الحال ، وهو الذى أغراها بالانحراف،وربما ظل يطاردها حتى ضعفت واستجابت .

ويزداد إثم الزنى بالمرأة المتزوجة إذا كانت امرأة جاره،التى يفترض فيه أن يكون حارسا لها ، لا لصا يسرق عفتها ، ويخون جاره فيها ، وقد قال عنترة وهو جاهلى :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها !

ولكن هذا يغير عليها ويفتك بها ،وقد نفى الرسول الكريم الإيمان عمن لايأمن جاره بوائقه .

روى الشيخان من حديث ابن مسعود أن النبىﷺ سئل : أى الذنب أعظم ؟ فقال: « أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك » . قال: ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » ، قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك »[4] .

---

(١) الإسراء : ٣٢ . (٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٣) رواه عن أبى هريرة أبو داود (١٢٧٥) والنسائى (فى الكبرى) وابن حبان فى صحيحه والحاكم (٢ / ١٩٦) وصححه على شرط البخارى ووافقه الذهبي ورواه عن ابن عباس أبو يعلى ورواته ثقات كما قال المنذرى (المنتقى : ١١٦٧) والهيثمى (٥ : ٢٦٥) .

(٤) متفق عليه عن ابن مسعود .

فذكر من هذه الذنوب أعظمها ، وهى فى نفسها عظيمة ، فالشرك كله ظلم عظيم ، وأعظمه أن تتخذ لله ندا ، وهو خالقك ، والقتل فى حد ذاته من أكبر الكبائر ، ولكن أعظمه أن تقتل ولدك ، الذى يفترض أن تجوع ليشبع ، وتسهر لينام ، وتفديه بنفسك ، وتقتله بدافع خسيس وهو خوف أن يزاحمك فى طعامك ! والزنى كبيرة فى نفسه ، ولكن أن تزنى بحليله جارك الذى يفترض أن تكون أمينا على حرماته ، تحفظه إذا غاب ، وتعينه إذا حضر ، فهذه أكبر وأعظم .

وعن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنى ؟ » قالوا : حرام ، حرمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة : أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال : ما تقولون فى السرقة ؟ قالوا : السرقة حرام ، حرمها الله ورسوله ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات : أيسر عليه من أن يسرق من جاره » (١) .

فإذا كان هذا الجار قريبا للزانى ، كأن يكون ابن عم أو ابن خال أو ابن خالة ، أو كان أخا له أو عما أو خالا ، كان الإثم أعظم ، لأنه ضم إلى إفساد الزوجة قطع الرحم ، ولا يدخل الجنة قاطع رحم ، ولأنه جار له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق الجوار ، وحق القرابة ، لهذا كان إيذاؤه أعظم خطرا .

ومثل ذلك المرأة (المغيبة) التى غاب زوجها فى طاعة الله، فى حج أو عمرة، أو طلب علم ، أو دعوة إلى الله ، أو فى الجهاد فى سبيل الله ، وهو أعظمها ، فالزانى بهذه المرأة أعظم إثما ، وأكبر جرما ، من الزانى بزوجة رجل عادىّ ، لأن فى هذا الزنى: خيانة لهذا الزوج الذى غاب فى طاعة الله،أو فى مصلحة الدين والأمة ، فهذا يكافئة بانتهاك حرمته ، والاعتداء على عرضه .

وفى الحديث : « مثل الذى يجلس على فراش المغيبة ، مثل الذى ينهشه أسود من أساود يوم القيامة » (٢) .

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٦ : ٨) ورواته ثقات ، والطبرانى فى الكبير والأوسط كما قال المنذرى فى الترغيب (المنتقى : ١٥٢١) وكذا الهيثمى : (٨ : ١٦٨) .

(٢) رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمرو رفعه ورواته ثقات كما قال المنذرى انظر : المنتقى : (١٤٢٦) والهيثمى (٦ / ٢٥٨) .

والمغيبة : من غاب عنها زوجها . والأسود : الحية .

وفى الصحيح عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم! ما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين فى أهله ، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة ، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : « فما ظنكم ؟! » أى فما ظنكم بمن حُكِّم فى حسنات خصمه فى يوم يكون الناس أحوج ما يكونون فيه إلى الحسنات ، ولا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ؟ وفى رواية النسائى لهذا الحديث زاد : أترون يدع له من حسناته شيئا ؟! [1] . .

ومثل ذلك أو شر منه : من يزنى بإحدى محارمه كأخته أو عمته أو خالته ، فإثمه هنا أكبر ، لأن المفروض أن يحمى عرض هؤلاء ، ويقاتل عنهن إذا اعتدى عليهن ، لا أن يفترسهن ، ويدخل فى ذلك : المحارم بالمصاهرة مثل : حماته وامرأة أبيه ، وامرأة ابنه .

وقد تتعاظم الكبيرة خاصة والسيئة عامة : بحكم المكان الذى وقعت فيه ، كأن تقع فى البلد الحرام ، فإن السيئات تضاعف فيه عقوبتها ، كما أن الحسنات تضاعف مثوبتها . وهذا هو العدل ، فإن الله كما ضاعف لنساء النبى أجرهن إذا قنتن لله وعملن صالحا ، ضاعف عذابهن إذا أتين بفاحشة مبينة .

وكما تضاعف الكبيرة أو السيئة بسبب المكان ، تتضاعف بسبب الزمان ، فمن يزنى فى الشهر الحرام يكون إثمه أشد ، لقوله تعالى عن الأشهر الحرم : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[2] وظلم النفس حرام فى كل الشهور ، ولكنه فى الأشهر الحرم أعظم إثما .

ومثل ذلك فى شهر رمضان ، الذى فرض الله صيام أيامه ، وسن الرسول قيام

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة (١٨٩٧) وأبو داود (٢٤٩٦) والنسائى فى الجهاد : باب من خان غازيا فى أهله (٦ / ٥٠ ، ٥١) .

(٢) التوبة : ٣٦ .

لياليه، ونهى فيه عن اللغو والرفث ، فالمسلم يدع فيه شهوته وزوجته من أجل الله ، وهذا يزنى بامرأة أجنبية من أجل شيطانه وهواه .

ولهذا حين جيء إلى عمر رضى الله عنه بسكران أقام عليه حد السكر، وزاده عشرين جلدة ، لانتهاكه حرمة شهر رمضان ، وقال له : أسُكْر وصبياننا صيام ؟! .

ومثل ذلك : أيام عشر ذى الحجة التى تضاعف فيها مثوبة الحسنات ، وخصوصا يوم عرفة ! وكذلك أوقات الصلوات وسماع الأذان ، وأوقات إجابة الدعاء ونحوها .

وقد يتضاعف إثم السيئة أو الكبيرة بسبب الفعل نفسه ، كما ذكر الغزالى ، مثل المواظبة والتكرار له ، كما فى قوله : « أن تزانى حليلة جارك » فعبارة « تزانى » لا يقصد بمرة أو مرتين ، بل تقتضى المعاودة والتكرار .

ومثل ذلك : المعالنة والمجاهرة ، كما فى الحديث الصحيح « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » .

ولهذا جعل الشارع عقوبة الزنى على المجاهرة لا على مجرد الفعل ، بدليل أنه اشترط لإثبات جريمة الزنى ، وإقامة الحد على الزانى : أربعة شهود عدول يرون العملية الجنسية بوضوح ، كالميل فى المكحلة أو القـــلم فى الدواة ، كما يقول الفقهاء ، وهذا لا يمكن أن يحدث فى العادة إلا إذا كان الزانيان فاجرين لايباليان أن يراهما الناس متلبسَّين .

وفى حديث ابن عمر عن ابن ماجه والبزار والبيهقى « يا معشر المهاجرين : خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلاَّ فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . . . » الحديث .

فالاستعلان بالفاحشة - وهى تشمل الزنى وعمل قوم لوط - ينزل بها عقوبة القدر بظهور الطاعون والأمراض التى لم يعرفها السابقون ، وهو ما صدقه الواقع أبلغ التصديق ، ولا سيما بعد فشو مرض (الإيدز) الذى أعجز الأطباء علاجه إلى اليوم ، ويسمونه (الطاعون الأبيض) !

وقد جاء فى حديث ابن مسعود : « ما ظهر فى قوم الزنى والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله » (١) فعذاب الله إنما حل بهم بعد الظهور والاستعلان لفاحشة الزنى ، وموبقة الربا ، وهو ذنب آخر فوق ذنب الفعل لكل منهما .

وشر من الاستعلان : ارتكاب فاحشة الزنى اغتصابا وعدوانا وعنوة ، تحت تهديد القوة والسلاح كما يفعله بعض الحكام الطغاة ، أو الأقوياء الظلمة ، أو الأغنياء الفجرة ، فى بنات الأسر المستضعفة ، التى لا تملك حولاً ولا قوة ، وكما يفعله بعض الأشرار الذين يخطفون النساء من الطريق، ويركبونهن سياراتهم بالحديد والنار ، ويرتكبون معهن الفاحشة ، ثم يلقونهن بعد ذلك عظما ، بعد أن أكلوهن لحما ، ولهذا ذهب كثير من علماء العصـــر إلى أن عقوبة هؤلاء يجب أن تكون القتل ، ردعا وزجرا ، وهو ما نرجحه

وما نقوله فى الزنى نقوله فى غيره ، مثل القتل فالقتل كله من الموبقات ، ولكن قتل المؤمن الصالح أشد وأعظم من قتل المسلم العاصى أو المخلط ، وقتل المسلم الداعية إلى الله أشد من قتل المسلم العادى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

وقتل الأطفال البرآء أشد من قتل الكبار ، كما ذكر القرآن على لسان العبد الصالح لموسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٣) .

وقتل الأولاد من الأطفال أشد نكرًا لأنه قتل وقطع رحم ، فإذا قتلهم من أجل الإملاق أو خشية الإملاق كانت الجريمة أعظم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٤) .

فإذا كان القتل بطريق (الوأد) كما كانوا يفعلون بالبنات فى الجاهلية كان الجرم أبشع وأشنع ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٥) .

---

(١) رواه أحمد فى المسند وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وأبو يعلى وإسناده جيد كما قال الهيثمى (٤ : ١٨) .
(٢) آل عمران : ٢١ .
(٣) الكهف : ٧٤ .
(٤) الإسراء : ٣١ .
(٥) التكوير : ٨ ، ٩ .

وانظر إلى ذنب مثل الكذب ، فلا شك أن الكذب كله حرام ، ولكن إثمه يتفاوت ويتعاظم بسبب وآخر ، فكذب الملوك والحكام مما يشتد بغض الله له ، وقد جاء فى الصحيح أن أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : ملك كذاب .

ومن ذلك : الكذب فى (الشهادة) لما يترتب عليها من تضليل العدالة ، وتضييع الحقوق ، وزرع الشر فى المجتمع ، ولذا عدها الحديث المتفق عليه من أكبر الكبائر .

ومن ذلك : الكذب فى اليمين . لما فيها من استهانة باسم الله تعالى والقسم به ، وما ينشأ عن ذلك من ضياع الأموال والدماء والأعراض ، ولهذا سميت اليمين الفاجرة ، واليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها في الإثم في الدنيا ، وفى النار فى الآخرة ، ولهذا عدت في الكبائر .

ومن ذلك : الكذب فى الرؤيا : أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا ، كما صح فى الحديث لما فيها من كذب على الناس ، فى أمر قد يؤثر فى أفكار الناس وميولهم .

وأكبر من ذلك : الكذب على رسول الله باختراع أحاديث لم يقلها ، وقد تواتر عنه ﷺ « إن كذبا على ليس ككذب على أحد ، من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وأكبر وأكبر : من كذب على الله تعالى بادعاء النبوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ (١) .

وهكذا نجد الذنوب كلها قابلة لأن تتعاظم وتتعاظم ، ويتضاعف إثمها وعقوبتها عند الله ، بأسباب وملابسات شتى ، تنضم إليها ، فيكبر ضررها ، ويتفاقم أثرها .

* * *

(١) الأنعام : ٩٣ .

مكفرات الذنوب

من فضل الله تعالى علينا ، ورحمته بنا : أنه تعالى علم ضعفنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (١) .

وقد علم الله سبحانه أن هذا الضعف الذى جبل عليه الإنسان ، سيدفع بالإنسان إلى المعصية ، كما وقع لأبيه الأول آدم عليه السلام ، ومن هنا أتاح لنا عز وجل فرصة بعد فرصة للتطهر من أوساخ هذه المعاصى والذنوب، فجعل لنا مغاسل أو (حمامات) عدة متنوعة ، نغتسل فيها من الخطايا التى تغلب إرادتنا ، وينهزم فيها باعث الدين أمام باعث الهوى ، وينتصر فيها الشيطان على الإنسان .

وقد عبر ابن القيم رحمه الله عن هذه المكفرات بـ (الأنهار) يغتسل فيها المذنب من خطاياه نهرا بعد نهر ، حتى يتطهر تمامًا من كل درن .

وفى عصرنا أصبحت الأنهار تلوث من يغتسل فيها أكثر مما تطهره ، نظرا لكثرة ما يلقى فيها من الفضلات والنفايات والقاذورات ، حتى إن الجهات الصحية والبيئية لتحذر من مياه هذه الأنهار ، ولهذا آثرت أن أستخدم لفظا أكثر تعبيرا عن المقصود فى زمننا ، وهو لفظ (الحمامات) التى يدخلها الناس ليتنظفوا ويتطهروا .

وحاجة الإنسان إلى التطهر المعنوى من الذنوب : أشد من حاجته إلى التطهر الحسى من الأوساخ .

وبعض هذه الذنوب والخطايا : لا يكاد يسلم منها أحد ، ومن سلم منها اليوم وقع فى شراكها فى الغد ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فكل بنى آدم خطاء .

---

(١) النساء : ٢٨ .

هذه الحمامات الروحية المتاحة لكل إنسان : بعضها يومى ، كالصلوات الخمس، وبعضها أسبوعى كصلاة الجمعة ، وبعضها شهرى ، كصيام الأيام البيض من كل شهر ، وبعضها سنوى كصيام رمضان ، وبعضها عُمرىّ ، كفريضة الحج ، الذى يجب فى العمر مرة واحدة ، وبعضها مرهون بظروفه مثل الهجرة والجهاد ، وبعضها مفتوح ومتاح أبدا ، مثل التوبة والاستغفار ، وذكر الله ونوافل العبادات .

وسنتحدث عن هذه (المكفِّرات) أو (الحمامات) فى الصحائف التالية ، حتى يحاول كل من دنسته الذنوب أن يغسل نفسه منها، ليكون من التوابين ومن المتطهرين الذين يحبهم الله تبارك وتعالى .

١ - حمام التوبة :

أول هذه الحمامات هو : التوبة ، فإن من أعظم ثمراتها : تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، فهى تجب ما قبلها من الذنوب وتهدمه ، كما أن الإسلام يجب ما قبله من الكفر والجاهلية ويهدمه .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ [1] فجعل تكفير السيئات أولى ثمرات التوبة .

وقد مر بنا حديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » [2] .

ونؤكد هنا ما ذكرناه من قبل ، وهو الاستمرار فى التوبة ، وتكرارها كلما تكرر الذنب ، ولا ييأس أبدا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

روى الحاكم عن عقبة بن عامر أن رجلا أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أحدنا يذنب ! فقال : « يكتب عليه » قال : ثم يستغفر ! قال : « يغفر له

---

(١) التحريم : ٨ .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) والطبرانى (١٠٢٨١) وأبو نعيم (٤ : ٢١٠) عن ابن مسعود ، وحسنه الحافظ ابن حجر بشواهده كما فى (المقاصد الحسنة) للسخاوى ص١٥٢ .

ويتاب عليه » ، قال : فيعود فيذنب ! قال :« يكتب عليه » قال : ثم يستغفر منه ويتوب ! قال : « يغفر له ويتاب عليه ، ولا يمل الله حتى تملوا »[1] .

روى ابن أبى الدنيا عن على رضي الله عنه قال : خياركم كل مفتَّن ثواب (والمفتَّن : الذى يفتن ويبتلى بالذنب حينا بعد حين ، والتواب : الذى يتوب من الذنب مرة بعد مرة) قيل لعلىّ : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب ، قيل : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب . قيل : حتى متى ؟ قال : حتى يكون الشيطان هو المحسور ! (أى المغلوب اليائس) .

وقال الإمام الغزالى : فإن تبت ثم نقضت التوبة ، وعدت إلى الذنب ثانياً ، فعد إلى التوبة مبادراً ، وقل لنفسك: لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة ، وكذلك ثالثا ورابعاً ، وكما اتخذت الذنب والعود إليه حرفة ، فاتخذ التوبة والعود إليها حرفة ، فلا تكن فى التوبة أعجز منك فى الذنب ، ولا تيأس ، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك ، فإنه دلالة الخير[2] .

٢ - حمام الاستغفار :

والحمام الثانى هو : الاستغفار ، وهو مكمل للتوبة، بل هو التوبة نفسها إذا صدق ، ولذا يقترنان ، ويفرد أحدهما فيعبر به عن الآخر معه ، كما ذكرنا قبل . وقد جاء عن أنس قال : بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ﴾[3] بكى (اللعين)[4] .

وقال ابن مسعود : هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها[5] .

---

(١) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبى (١ : ٥٩) مع أن فى سنده عبد الله بن صالح كاتب الليث وفى حفظه شىء .

(٢) منهاج العابدين للغزالى ص ٨٠ طبعة مؤسسة الرسالة ،بيروت .

(٣) آل عمران : ١٣٥ .

(٤) رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير كما فى(الدر المنثور)للسيوطى(٢ : ٣٢٦) .

(٥) نفسه - ونسبه لابن المنذر .

وذكر العلامة ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم) قال :

قال أبو هريرة : إنى لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم ألف مرة ، وذلك على قدر ديتى [1] . عبر بالدية عما يطلب منه مقابل الذنوب .

وقالت عائشة : طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفاراً كثيراً [2] .

وقال أبو المنهال : ما جاور عبد فى قبره من جار أحب إليه من استغفار كثير .

وبالجملة فدواء الذنوب : الاستغفار ، وعن أبى ذر : « إن لكل داء دواءً ، وإن دواء الذنوب : الاستغفار » [3] .

وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم : فالذنوب ، وأما دواؤكم : فالاستغفار .

وقال بعضهم : إنما معوّل المذنبين البكاء والاستغفار ، فمن أهمته ذنوبه ، أكثر لها من الاستغفار .

قال رياح القيسى : لى نيف وأربعون ذنباً ، قد استغفرت الله لكل ذنب مئة ألف مرة [4] .

وحاسب بعضهم نفسه من وقت بلوغه ، فإذا زلاته لا تجاوز ستاً وثلاثين زلة ، فاستغفر الله لكل زلة مئة ألف مرة ، وصلى لكل زلة ألف ركعة، قال : ومع ذلك ، فإنى غير آمن سطوة ربى أن يأخذنى بها ، وأنا على خطر من قبول التوبة .

وقيل للحسن : ألا يستحيى أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ، ثم يعود ، ثم يستغفر ، ثم يعود ، فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من

---

(١) « الحلية » ١ / ٣٨٣ .

(٢) « الحلية » ١٠ / ٣٥٩ ورواه ابن ماجه (٣٨١٨) ، والنسائى فى « عمل اليوم والليلة » (٤٥٥) من حديث عبد الله بن بسر مرفوعاً ، وإسناده صحيح كما قال البوصيرى فى « الزوائد » .

(٣) رواه الحاكم ٤ / ٢٤٢ عن أبى ذر موقوفاً ، وصححه ووافقه الذهبى .

(٤) « الحلية » ٦ / ١٩٤ .

الاستغفار، وروى عنه أنه قال : ما أرى هذا إلا من أخلاق المؤمنين ، يعنى : أن المؤمن كلما أذنب تاب .

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : من أحسن منكم ، فليحمد الله ، ومن أساء ، فليستغفر الله ، فإنه لابد لأقوام من أن يعملوا أعمالاً وظفها الله فى رقابهم ، وكتبها عليهم ، وفى رواية أخرى عنه أنه قال : أيها الناس من ألم بذنب، فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد ، فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد ، فليستغفر الله وليتب ، فإنما هى خطايا مطوقة فى أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك فى الإصرار عليها .

ومعنى هذا : أن العبد لابد أن يفعل ما قدر عليه من الذنوب كما قال النبى ﷺ : « كتب على ابن آدم حظه من الزنى ، فهو مدرك ذلك لا محالة » [1] . ولكن الله جعل للعبد مخرجاً مما وقع فيه من الذنوب ، ومحاه بالتوبة والاستغفار ، فإن فعل ، فقد تخلص من شر الذنب ، وإن أصر على الذنب ، هلك .

ويروى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه : يا بنى عود لسانك : اللهم اغفر لى ، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

وقال الحسن : أكثروا من الاستغفار فى بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفى طرقكم ، وفى أسواقكم ، وفى مجالسكم أينما كنتم ، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب « حسن الظن » - بسند ضعيف [2] - من حديث أبى هريرة مرفوعاً : « بينما رجل مستلق إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم ، فقال : إنى لأعلم أن لك رباً خالقاً ، اللهم اغفر لى ، فغفر له » .

وعن مورق قال : كان رجل يعمل السيئات ، فخرج إلى البرية ، فجمع تراباً ،

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى (٦٢٤٣) و (٦٦١٢) ومسلم (٢٦٧٥) وأبو داود (٢١٥٢) من حديث أبى هريرة .

(٢) لضعف عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدى أحد رواته ، ورقم الحديث (١٠٧) .

فاضطجع عليه مستلقياً ، فقال : رب اغفر لى ذنوبى ، فقال : إن هذا ليعرف أن له رباً يغفر ويعذب ، فغفر له .

وروى أبو نعيم فى الحلية [1] عن مغيث بن ســـمى ، قال : بينما رجل خبيث ، فتذكر يوماً ، فقال : اللهم غفرانك ، اللهم غفرانك ، اللهم غفرانك ! ثم مات ، فغفر له .

قال العلامة ابن رجب :

ومن زاد اهتمامه بذنوبه ، فربما تعلَّق بأذيال من قلت ذنوبه ، فالتمس منه الاستغفار ، وكان عمر يطلب من الصبيان الاستغفار ، ويقول : إنكم لم تُذنبوا ! وكان أبو هريرة يقول لغلمان الكُتاب : قولوا : اللهم اغفر لأبى هريرة ، فيدعون فيؤمن على دعائهم .

قال بكر المزنى : لو كان رجل يطوف على الأبواب كما يطوف المسكين يقول : استغفروا لى ، لكان له أن يفعل .

ومن كَثُرت ذنوبه وسيئاته حتى فاتت العد والإحصاء ، فليستغفر الله مما علم الله ، فإن الله قد علم كل شىء وأحصاه ، كما قال تعالى : ﴿ يَومَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللهُ ونَسُوهُ ﴾[2] ، وفى حديث شداد بن أوس ، عن النبى ﷺ : « أسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شـــر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » [3] . وفى هذا يقول بعضهم :

أستغفر الله مما يَعلـــمُ الله ... إن الشَّقِىَّ لَمَـــن لا يَرحَمُ الله

ما أحلمَ اللهَ عمـــن لا يُراقبُه ... كُلٌّ مُسىءٌ ولكـــــن يَحلمُ الله

فاستَغفِرِ الله مما كان من زَلَلٍ ... طُوبى لمن كَفَّ عما يكرهُ الله [4]

---

(١) الحلية : ٦ / ٦٨ .

(٢) المجادلة : ٦ .

(٣) رواه أحمد ١ / ١٢٥ ، والترمذى (٣٤٠٧) ، وصححه ابن حبان (١٩٧٤) ، والحاكم ١ / ٥٠٨ ، ووافقه الذهبى .

(٤) انظر : جامع العلوم والحكم : ١ / ٤١٥ ، ٤١٦ .

٣ - حمام الحسنات والطاعات :

والحمام الثالث الذى يغتسل فيه المذنب من ذنوبه هو : حمام الحسنات والطاعات ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) .

وكما قال ﷺ فى وصيته لأبى ذر : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

وقد بينا ذلك بإجمال فى حديثنا عن (مقومات التوبة) وذكرنا رأى الإمام الغزالى فى محو السيئات بما يضادها من الحسنات من جنسها ، وذكرنا أمثلة عدة لذلك ، وهنا نذكر تفصيلات أكثر للحسنات والطاعات التى يبدد نورها ظلمات المعاصى ، كما تشرق الشمس ، فتزيل دجى الليل .

التوحيد والخلوص من الشرك :

على رأس قائمة الحسنات : التوحيد، فهو حسنة الحسنات ، وأساس الطاعات ، ولا يكفى فيه (توحيد الخالقية) أو (الربوبية) فقد كان مشركو العرب يقرون به ، ولكن لابد من (توحيد الإلهية) بمعنى: أن لا يعبد إلا الله ، وهو التوحيد الذى أنزل الله به كتبه ، وبعث به رسله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

فإقَامَة التوحيد ، والخلوص من الشرك : أعظم أسباب مغفرة الذنوب ، وأما الشرك فهو المانع الأول من المغفرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣) .

وقد روى مسلم عن أبى ذر عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا .... ومن لقينى بقراب الأرض (أى بملئها أو ما يقاربه) خطيئة ، لا يشرك بى شيئا ، لقيته بمثلها مغفرة » (٤) .

وروى الترمذى عن أنس فى الحديث القدسى أيضاً : « يا ابن آدم ، لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا ، لأتيتك بقرابها مغفرة » (٥) .

---

(١) هود : ١١٤ . (٢) الأنبياء : ٢٥ . (٣) النساء : ٨ .

(٤) رواه مسلم برقم (٢٦٧٨) .

(٥) رواه الترمذى : (٣٥٤٠) وحسنه .

المهم أن يتحقق الشرط وهو : ألا يشرك بالله شيئا ، لا حجرًا ، ولا شجرا ، ولا شمسًا ولا قمرا ، ولا جنا ولا بشرا ، فيتحرر من الشرك كله ، أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، ومن عـــبادة كل ما سوى الله : من عبادة الأشياء ، وعبادة الأشخاص ، وعبادة الذات : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) .

وبهذا يحقق معنى (لا إله إلا الله) فى نفسه وفى حياته ، فيعبد الله وحده ، ويجتنب الطاغوت .

يقول الحافظ ابن رجب : فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه : أخرجت منه كل ما سوى الله محبة ، وتعظيما وإجلالا ، ومهابة وخشية ، ورجاء وتوكلا ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ، ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الأكسير الأعظم ، فلو وضع ذرة منها على جبال الذنوب والخطايا، لقلبها حسنات .

وفى المسند عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « ارفعوا أيديكم ، وقولوا : لا إله إلا الله » فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ، ثم قال : « الحمد لله ، اللهم بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتنى الجنة عليها، وإنك لا تخلف الميعاد » ، ثم قال : « أبشروا، فإن الله قد غفر لكم » (٢) .

وليس المراد : أن يقولها المرء من طرف لسانه ، فالمنافقون يقولونها ، وإنما المطلوب أن يتواطأ القلب واللسان ، حتى تؤتى أكلها ، وتحقق أثرها .

إحسان الوضوء والصلاة :

ومن هذه الحسنات والطاعات : إحسان الوضوء وإتمام الصلاة : العبادة اليومية التى تجعل المسلم على موعد مع ربه كل يوم خمس مرات .

روى الإمام أحمدُ ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه من

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٤/ ١٢٤) ، والبزار والطبرانى ، وحسنه الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وقال الهيثمى : رجاله ثقات (جامع العلوم والحكم : ٤١٧٢) .

حديث أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلى ، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وفى « الصحيحين » (٢) عن عثمان أنه توضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وفى « مسند الإمام أحمد » (٣) عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام فصلى ركعتين أو أربعاً يحسن فيهما الركوع والخشوع ، ثم استغفر الله غفر له » .

وفى « الصحيحين » (٤) عن أنس قال : كنت عند النبى ﷺ ، فجاءه رجل ، فقال : يا رسول الله إنى أصبت حداً ، فأقمه علىّ ، قال : ولم يسأله عنه ، فحضرت الصلاة فصلى مع النبى ﷺ ، فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله إنى أصبت حداً ، فأقم فىّ كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا ؟ » قال : نعم ، قال : « فإن الله قد غفر لك ذنبك - أو قال : حدّك » وخرجه مسلم (٥) بمعناه من حديث أبى أمامة .

وفى « الصحيحين » (٦) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « أرأيتم لو أن نهراً

---

(١) رواه أحمد ١ / ٢ ، ١٠ ، وابن أبى شيبة ٢ / ٣٨٧ ، وأبو داود (١٥٢٠) والترمذى (٣٠٠٦) والنسائى فى«عمل اليوم والليلة » (٤١٤) و (٤١٧) ، وابن ماجه (١٣٩٥) ، وابو بكر المروزى فى مسند أبى بكر (٩) و (١٠) وصححه ابن حبان(٦٢٣)، والآية من آل عمران : ١٣٥

(٢) البخارى (١٥٩) و (١٦٤) ومسلم (٢٢٧) .

(٣) ٦ / ٤٤٣ ، ٤٥٠ ، ورواه الطبرانى فى « كتاب الدعاء » (١٨٤٨) وهو حديث حسن .

(٤) البخارى (٦٨٢٣) ومسلم (٢٧٦٤) وقوله : « أصبت حداً » قال النووى : هذا الحد معناه معصية من المعاصى الموجبة للتعزير ، وهى هنا من الصغائر ، لأنها كفرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له لم تسقط بالصلاة ، ويرى ابن القيم أن الذى أسقط هذه الكبيرة هو: التوبة ، وقوله : « فأقمه علىّ » يدل على أنه من العقوبات التى تقام على الجانى .

(٥) رقم (٢٧٦٥) .

(٦) البخارى (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧) .

بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ » قالوا: لا يبقى من درنه شيء ، قال: « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

وفى « صحيح مسلم » [1] عن عثمان ، عن النبى ﷺ قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » .

وفيه [2] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط » .

ومن الصلوات التى لها أهمية خاصة : صلاة الجمعة . ففى صحيح مسلم [3] عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا أجتنبت الكبائر » .

وفى مسند أحمد عن سلمان عن النبى ﷺ : « لا يتطهر الرجل - يعنى يوم الجمعة - فيحسن طُهوره ، ثم يأتى الجمعة فينصت ، حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة ، ما اجتنبت المقتلة » [4] .

والمراد بالمقتلة : الكبائر التى توبق الإنسان ، وتعرضه لعذاب الله .

ومن هذه الصلوات المكفرة : قيام الليل ، وفى الحديث : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد » [5] .

---

(١) برقم (٢٤٥) . (٢) برقم (٢٥١) .

(٣) برقم (٢٣٣) .

(٤) رواه أحمد فى مسنده : ٥ : ٤٣٩ ورجاله ثقات .

(٥) رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى عن بلال ، والترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى إمامة والطبرانى عن سلمان ، وابن السنى عن جابر ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٤٠٧٩) .

الصيام والصدقة والحج :

وللعبادات الأخرى أثرها فى التطهير والتكفير : من الصيام والصدقة والحج والعمرة .

وفى « الصحيحين » [١] عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وهكذا جعل الثواب الموعود هنا لمن فعل ذلك (إيمانا واحتسابا) أى تصديقا بوعده سبحانه ، وابتغاء للمثوبة عنده .

وفيهما [٢] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من حج هذا البيت ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

فهذه التوبة ليست لكل حاج ، ولكن لمن حج فلم يرفث ولم يفسق .

وفى « صحيح مسلم » [٣] عن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ قال : « إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وإن الحج يهدم ما كان قبله » .

وفى الصحيحين : « العمرة إلى العمرة : كفارة لما بينهما » والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » [٤] وفى النسائى : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد » [٥] .

---

(١) البخارى (١٩٠١) و (٢٠٠٨) و (٢٠١٤) ومسلم (٧٥٩) .

(٢) البخارى (١٨١٩) و (١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠) .

(٣) رقم (١٢١) .

(٤) رواه مالك وأحمد والشيخان وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٤١٣٦) .

(٥) رواه النسائى عن ابن عباس ، ورواه أحمد وابن ماجه عن عمر بلفظ : « ينفيان =

وفى صحيح مسلم [1] من حديث أبى قتادة ، عن النبـــى ﷺ قال فى صوم عاشوراء : « أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله » ، وقال فى صـوم يوم عـــرفة : « أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والتى بعده » .

وروى الإمام أحمد [2] من حديث عقبة بن عامر، عن النبى ﷺ قال: « مثل الذى يعمل السيئات، ثم يعمل الحسنات ، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى ، فانفكت أخرى ، حتى يخرج إلي الأرض » .

وروى الترمذى من حديث معاذ بن جبل الطويل ، وقال : حســن صحيح : « الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » [3] .

ذكر الله :

ومما يكفر الخطايا : ذكر الله عز وجل ، وخصوصا إذا تواطأ عليه القلب واللسان : سواء كان ذكر ثناء أم ذكر دعاء قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [4] .

ومن هذا الذكر : التســـبيح والتهـــليل قول :(لا إله إلا الله) والتـــحميد (الحمد لله) والتكبير ، والحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريـرة ، عن النبـى ﷺ قال : « من قال :

= عن الفقر والذنوب » كما رواه أحمد والترمذى والنسائى عن ابن مسعود (صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٨٩٩ - ٢٩٠١) .

(١) رقم (١١٦٢) .

(٢) ٤ / ١٤٥ ، وسنده حسن ، فإن راويه عن ابن لهيعة عبد الله بن المبارك .

(٣) وقد ثبت أيضا من حديث جابر، رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبـــان والحاكم . انظر : المنتقى : حديث(٤٤٨) . (٤) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢ .

(سبحان الله وبحمده) فى يومه مئة مرة ، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » [1] .

وفيهما عنه ، عن النبى ﷺ قال : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مئة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكُتبت له مئة حسنة ، ومحيت عنه مئة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أفضل من ذلك » [2] .

وخرج الإمام أحمد [3] بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « إن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها » [4] .

والأحاديث فى هذا كثيرة جداً يطول الكتاب بذكرها .

وسئل الحسن عن رجل لا يتحاشى من معصية إلا أن لسانه لا يفتر من ذكر الله ، فقال : إن ذلك لعون حسن .

وسئل الإمام أحمد عن رجل اكتسب مالاً من شبهة : صلاته وتسبيحه يحط عنه شيئًا من ذلك ؟ فقال : إن صلى وسبح يريد به ذلك ، فأرجو ، قال الله تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [5].

وقال مالك بن دينار : البكاء على الخطيئة يحط الخطايا ، كما تحط الريح الورق اليابس .

---

(١) البخارى (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩٢) .
(٢) البخارى (٣٢٩٣) و (٦٤٠٣) ، ومسلم (٢١٩١) .
(٣) فى « مسنده » ٣ / ١٥٢ .
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣ : ١٥٢) .
(٥) التوبة : ١٠٢ .

وقال عطاء : من جلس مجلساً من مجالس الذكر ، كفر به عشرة مجالس من مجالس الباطل .

ولما سئل عطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجلس الحلال والحرام ، وكيف تصلى ؟ وكيف تصوم ؟ وكيف تنكح ؟ وكيف تطلق ؟ تبيع وتشترى (يعنى : مجلس الذكر هو : مجلس العلم) .

البر والصلة :

ومن مكفرات الذنوب : بر الوالدين ، وصلة الرحم ، وبخاصة بر الوالدين فى حالة الكبر ، وفى الحديث أن جبريل عليه السلام دعا على من أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما ، فلم يغفر له ، وأمَّن عليه النبى ﷺ (١) .

وروى الإمام أحمد والترمذى من حديث ابن عمر أن رجلا أتى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله ، إنى أصبت ذنباً عظيماً ، فهل لى من توبة ؟ قال: « هل لك من أم ؟ » قال : لا ، قال: « فهل لك من خالة ؟ » قال : نعم ، قال: « فبرها » (٢) .

وروى عن عمر أن رجلاً قال له : قتلت نفساً ! قال : أمك حية ؟ قال : لا ، قال : فأبوك ؟ قال : نعم ، قال : فبره وأحسن إليه ، ثم قال عمر : لو كانت أمه حية فبرها ، وأحسن إليها ، رجوت أن لا تطعمه النار أبداً ، وعن ابن عباس معناه أيضًا (٣) .

وكذلك المرأة التى عملت بالسحر بدُومة الجندل ، وقدمت المدينة تسأل عن توبتها ، فوجدت النبى ﷺ قد توفى ، فقال لها أصحابه : لو كان أبواك حيين،

---

(١) روى عن أكثر من صحابى ، وصحح المنذرى فى الترغيب والترهيب بعض أسانيده وكذلك الهيثمى .

(٢) رواه أحمد ٢ / ١٣ - ١٤ ، والترمذى (١٩٠٥) وابن حبان (٤٣٥٦) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ٤ / ١٥٥ .

(٣) رواه البخارى فى « الأدب المفرد » (٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

أو أحدهما، كانا يكفيانك ، رواه الحاكم [1] ، وقال : فيه إجماع الصحابة ، حدثان وفاة الرسول - على أن بر الوالدين يكفيانها .

الإحسان إلى الخلق :

ومن الحسنات والطاعات المكفرة للذنوب : فعل الخيرات ، والإحسان إلى خلق الله ، والرحمة بهم جميعا من إنسان وحيوان .

فالراحمون يرحمهم الرحمن، ومن رحم من فى الأرض رحمه من فى السماء . وقد ذكرنا فى تأثير العبادات أن الصدقة تطفىء الخطيئة ، كما يطفى الماء النار ، وقد قال الرسول الكريم : « كل معروف صدقة » متفق عليه .

وقد صح عن أبى موسى أنه لما حضرته الوفاة قال : يا بَنِيَّ اذكروا صاحب الرغيف : كان رجل يتعبد فى صومعة - أُراه - سبعين سنة ، فشبه الشيطان فى عينه امرأة ، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال ثم كُشف عن الرجل غطاؤه ، فخرج تائبا . ثم ذكر أنه بات بين مساكين ، فَتُصُدِّق عليهم برغيف رغيف ، فأعطوه رغيفا ، ففقده صاحبه الذى كان يعطاه ، فلما علم بذلك أعطاه الرغيف ، وأصبح ميتا ! فوزنت السبعون سنة بالسبع ليال ، فرجحت الليالى ، ووزن الرغيف بالسبع الليال ، فرجح الرغيف [2] !

وهذا وإن كان موقوفًا علي أبى موسى ، فله حكم الحديث المرفوع ، لأنه مما لا مجال للرأى فيه .

ولا يقتصر تكفير السيئات على الإحسان إلى الناس والعقلاء ، بل الإحسان إلى البهائم والحيوانات والرفق بها مما تغفر به الذنوب .

---

(١) (١ / ١٥٥ ، ١٥٦) وصححه ووافقه الذهبى ، داود، ابن كثير فى تفسيره (١ / ٢٠٤) من طريق ابن أبى حاتم وجود إسناده .

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (١ / ٢٦٣) .

ومن أبرز النماذج الدالة على ذلك : هذا النموذج الحى الذى قصه علينا النبى ﷺ من قصص السابقين، فيما رواه عنه أبو هريرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « غفر لامرأة مومسة (بغى) مرت بكلب على رأس ركِىّ (بئر) يلهث ، كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها ، فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك » قيل : إن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » وكنى برطوبة الكبد عن الحياة ، أى فى الإحسان إلى كل كائن حى أجر .

فرغم الماضى الخبيث لهذه المرأة التى كانت تحترف البغاء والتكسب بفرجها : فغفر الله لها بهذه الفعلة العظيمة التى قامت بها ، والتى دلت على أن حرفتها السيئة لم تطفىء كل ما فى قلبها من النور ، ولم تقتلع كل ما فيه من جذور الخير ، وقد بدا ذلك فيما قامت به من جهد لسقى الكلب وإرواء عطشه ، وإنقاذ حياته .

وفى مقابل هذه الرحمة التى أوجبت لها المغفرة ، نجد امرأة أخرى انتهت بها (قسوة القلب) إلى عذاب جهنم ، وبئس المصير ، وذلك فيما رواه ابن عمر وأبو هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : « عذبت امرأة فى هرة أمسكتها حتى ماتت من الجوع ، فلم تكن تطعمها ، ولا ترسلها فتأكل من خشاش الأرض » أى من هوامها وحشراتها ، متفق عليه .

هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر ؟

قال ابن رجب : وقد اختلف الناس : هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر ؟ فمنهم من قال : لا تكفر سوى الصغائر ، وقد روى هذا عن عطاء وغيره من السلف فى الوضوء أنه يكفر الصغائر ، وقال سلمان الفارسى فى الوضوء : إنه يكفر الجراحات الصغار ، والمشى إلى المساجد يكفر أكبر من ذلك ، والصلاة تكفر أكبر من ذلك ، أخرجه محمد بن نصر المروزى [1] .

وأما الكبائر ، فلا بد لها من التوبة ، لأن الله أمر العباد بالتوبة ، وجعل من

---

(١) فى كتاب الصلاة رقم (٩٩) .

لم يتب ظالماً ، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض ، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصـــد ، ولو كانت الكبـــائر تقع مكفرة بالوضوء والصلاة ، وأداء بقية أركان الإسلام ، لم يحتج إلى التوبة ، وهذا باطل بالإجماع .

وأيضاً فلو كفرت الكبائر بفعل الفرائض ، لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار إذا أتى بالفرائض ، وهذا يشبه قول المرجئة وهو باطل ، هذا ما ذكره ابن عبد البر فى كتابه « التمهيد » وحكى إجماع المسلمين على ذلك ، واستدل عليه بأحاديث :

منها قول النبى ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » وهو مخرج فى الصحيح [1] من حديث أبى هريرة ، وهذا يدل على أن الكبائر لا تكفرها هذه الفرائض .

وفى « صحيح مسلم » [2] عن عثمان ، عن النبى ﷺ قال : « ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم يؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

وفى « مسند » الإمام أحمد [3] عن سلمان ، عن النبى ﷺ قال : « لا يتطهر الرجل - يعني يوم الجمعة - فيحسن طهوره ، ثم يأتى الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة ،ما اجتنبت المقتلة» .

وخرج النسائى ، وابن حبان ، والحاكم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « والذى نفسى بيده ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنـــب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة ، ثم قيل له : ادخل بسلام » [4] .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) . (٢) برقم (٢٢٨) .

(٣) « المسند » ٥ / ٤٣٩ ، ورجاله ثقات .

(٤) رواه النسائى ٥/ ٨ والحاكم ١/ ٢٠٠ و ٢/ ٢٤٠ ، وصححه ابن حبان (١٧٤٨) .

وقال ابن مسعود : الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر [1] .

وقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراح ما لم تصب المقتلة [2] .

قال ابن عمرلرجل : أتخاف النار أن تدخلها ، وتحب الجنة أن تدخلها ؟ قال : نعم ، قال : بر أمك ، فوالله لئن ألنت لها الكلام ، وأطعمتها الطعام ، لتدخلن الجنة ، ما اجتنبت الموجبات .

وقال قتادة : إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر .

وذهب قوم من أهل الحديث وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر ، ومنهم ابن حزم الظاهرى ، وإياه عنى ابن عبد البر فى كتاب « التمهيد » بالرد عليه وقال : قد كنت أرغب بنفسى عن الكلام فى هذا الباب ، لولا قول ذلك القائل ، وخشيت أن يغتر به جاهل ، فينهمك فى الموبقات ، اتكالا على أنها تكفرها الصلوات، دون الندم والاستغفار والتوبة ، والله نسأله العصمة والتوفيق .

قلت : (والقائل ابن رجب) وقد وقع مثل هذا فى كلام طائفة من أهل الحديث فى الوضوء ونحوه ، ووقع مثـــله فى كلام ابن المنذر فى قيام ليلة القدر ، قال : يُرجى لمن قامها أن يغفر له جميع ذنوبه ، صغيرها وكبيرها .

والصحيح قول الجمهور : إن الكبائر لا تكفَّر بدون التوبة ، لأن التوبة فرض على العباد ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [3] .

وقال ابن عون : لا تثق بكثرة العمل ، فإنك لا تدرى أيقبل منك أم لا ، ولا تأمن ذنوبك ، فإنك لا تدرى كفرت عنك أم لا ، إن عملك مغيب عنك كله .

---

(١) انظر« تعظيم قدر الصلاة » للمروزى ١ / ٢٢٤ .

(٢) رواه عبد الرزاق فى « المصنـف » (١٤٨) و (٤٧٣٧) ومـــن طريـقه الطبرانـى (٦٠٥١) .

(٣) الحجرات : ١١ .

قال : والأظهر - والله أعلم - فى هذه المسألة - أعنى مسألة تكفير الكبائر بالأعمال - أنه إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض ، وتقع الكبائر مكفرة بذلك ، كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، فهذا باطل ، وإن أريد أنه قد يوازن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال ، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل ، ويسقط العمل ، فلا يبقى له ثواب ، فهذا قد يقع .

وقد تقدم عن ابن عمر أنه لما أعتق مملوكه الذى ضربه ، قال : ليس لى فيه من الأجر شيء ، حيث كان كفارة لذنبه ، ولم يكن ذنبه من الكبائر ، فكيف بما كان من الأعمال مكفرًا للكبائر ؟ .

وسبق أيضاً قول من قال من السلف : إن السيئة تمحى ، ويسقط نظيرها حسنة من الحسنات التى هى ثواب العمل ، فإذا كان هذا فى الصغائر ، فكيف بالكبائر ؟ فإن بعض الكبائر قد يحبط بعض الأعمال المنافية لها، كما يبطل المن والأذى الصدقة .

٤ - حمّام المصائب والهموم :

ومن أعظم المكفرات للذنوب والخطايا : ما يبتلى الله به المسلم والمسلمة من مصائب الدنيا ، من المرض والفقر ، ومن فقد الأحباب ،والأموال ، والغربة عن الأهل والوطن ، والاعتقال والسجن ، ومن الهم والحزن ، ومن كل ما يتألم الإنسان منه بدنيًا أو نفسيا من ابتلاءات الحياة ، وذلك أن هذه المصائب تشعر الإنسان بعجزه وضعفه وفقره ، وقدرة ربه وقوته وغناه المطلق ، وتتيح له فرصة محاسبة نفسه ، ومراجعة رصيده ، والرجوع إلى مولاه ، فيدعو ربه منيبًا إليه ويقول : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لي ، وفى هذا قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

ومن ثم كان تكفير البلايا للخطايا متفقا مع سنن الله تعالى ، لما لها من تأثير فى نفس المبتلَى ، وإنزاله من دعوى الفرعونية إلى حقيقة العبودية .

---

(١) الروم : ٤١ .

وفى هذا روى أبو هريرة وأبو سعيد عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » (١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على النبى ﷺ ، وهو يوعك (أى يتألم من شدة المرض) فمسسته بيدى، فقلت : يا رسول الله ! إنك توعك وعكا شديدًا ! فقال : « أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » قال : فقلت : ذلك لأن لك أجرين ! فقال : « أجل » ثم قال : « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حط الله تعالى به سيئاته ، كما تحط الشجرة ورقها » (٢) .

ومن أجل هذا روى ابن عباس قال: كان النبى ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » (٣) ! يعنى إن هذا المرض طهارة وكفارة له .

وعن جابر قال : دخل رسول الله ﷺ على أم السائب ، فقال : « مالك تزفزفين ؟ » (أى ترتعدين) قالت : الحّمى ، لا بارك الله فيها ! فقال : « لا تسبى الحمّى ، فإنها تذهب خطايا بنى آدم ، كما يذهب الكير خبث الحديد » (٤) .

وعلى قدر شدة البلاء واستمراره ، يكون التطهير والتكفير للخطايا ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة : فى نفسه وماله وولده ، حتى يلقى الله تعالى ، وما عليه من خطيئة » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وروى مالك نحوه .

وعن سعد قال : سئل النبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان صلبا فى دينه اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ، هُوّن عليه ، فما زال كذلك (أى ينزل به البلاء) حتى يمشى

(١ ، ٢) متفق عليهما .

(٣) رواه البخارى . صحيح الجامع الصغير (٤٧١٨)

(٤) رواه مسلم : المصدر السابق (٧٣٢١) .

على الأرض ماله ذنب » رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وهذا التطهير والتكفير والثواب من الله تعالى ، إنما هو لمن استقبل البلاء بصبر جميل ، واحتسب ما أصابه عند الله تعالى ، ولم يقابله بالسخط والجزع ، فيضيع بحماقته ما له عند ربه .

عن أنس أن النبى ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه .

وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله سبحانه وتعالى : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه، ثم صبر، عوضته منهما الجنة » يريد : عينيه . رواه البخارى ، فانظر قوله : ثم صبر ، ليدل على وجوب الصبر عند البلاء .

وعن شداد بن أوس والصنابحى ، أنهما دخلا على رجل مريض يعودانه ، فقالا له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بنقمة ! فقال شداد : أبشر بكفارات السيئات ، وحط الخطايا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إذا أنا ابتليت عبدا من عبادى مؤمنا ، فحمدنى على ما ابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك ، كيوم ولدته أمه من الخطايا »[1] ، فانظر قوله سبحانه : « فحمدنى على ما ابتليته » فهو قيد لابد منه ليستحق ما وعد به: أن يخرج من خطاياه ، كيوم ولدته أمه، أى يولد ميلادا جديدا ، وذلك بأن يفلسف بلواه ، وينظر إلى جانب النعمة فيها ، كما قال عمر : ما أصبت ببلاء ، إلا رأيت لله عليه فيه أربع نعم : أنه لم يكن فى دينى ، وأنه لم يكن أكبر منه ، وإنى لم أحرم الرضا به ، وإنى أرجو مثوبة الله عليه ! .

ومن هنا روى جابر مرفوعا : « يود أهل العافية يوم القيامة ، حين يعطى أهل

---

(١) رواه أحمد .

البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض » رواه الترمذى وقال غريب(وله شاهد من حديث ابن عباس يرتقى به إلى درجة الحسن) .

ولهذا لم يكونوا يرحّبون بالإنسان يعيش طول عمره معافى لا يبتلى بشىء ، فإن معنى هذا أن كل عقابه على سيئاته مؤجل له فى الآخرة .

فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده الخير ، عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر ، أمسك عنه بذنبه ، حتى يوافيه به يوم القيامة » رواه الترمذى (وقال : حسن غريب) .

وعن يحيى بن سعيد قال : إن رجلا جاءه الموت فى زمن رسول الله ﷺ ، فقال رجل : هنيئًا له ، مات ولم يبتل بمرض ! فقال رسول الله ﷺ : ويحك ! وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض ، فكفر عنه من سيئاته ! » رواه مالك مرسلا (وهو مرسل صحيح الإسناد) [1].

٥ - حمَّام الحدود والعقوبات الشرعية :

ومن الحمامات المطهرة والمكفرة للذنوب والخطايا : إقامة الحدود والعقوبات الشرعية على من اقترف الجرائم الموجبة لها .

كما إذا زنى وأقيم عليه حد الزنى ، أو سرق وأقيم عليه حد السرقة ، أو قذف وأقيم عليه حد القذف ، أو شرب وأقيم عليه حد الشرب ، وهكذا ، فإن الله تعالى أكرم من أن يعاقبه مرتين : مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة ، كما ورد ذلك عن على رضي الله عنه مرفوعا : « من أصاب حدا فعُجِّل عقوبته فى الدنيا ، فالله أعدل من أن يثنّى على عبده العقوبة فى الآخرة ، ومن أصاب حدا فستره الله عليه ، عفا عنه ، فالله أكرم من أن يعود فى شىء قد عفا عنه » [2] .

وأوضح وأصح ما يستدل به على أن الحدود والعقوبات الشرعية كفارة لمن

---

(١) أحاديث هذه الفقرةكلها(حمام المصائب والهموم) أخذناها من (مشكاة المصابيح) للخطيب التبريزى بتحقيق الشيخ الألبانى · باب عيادة المريض وثواب المرض من كتاب الجنائز ·

(٢) رواه أحمد (١ / ٩٩ ، ١٥٩) والترمذى (٢٦٢٦) وقال : حسن غريب والحاكم (٢ / ٤٤٥، ٤ / ٢٦٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

أقيمت عليه : حديث عبادة بن الصامت ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ... ، فمن وفى منكم ، فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعوقب به (أى فى الدنيا) ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » خرجاه فى « الصحيحين » ، وفى رواية لمسلم : « من أتى منكم حداً فأقيم عليه فهو كفارته » [1] ، وهذا يدل على أن الحدود كفارات ، قال الشافعى : لم أسمع فى هذا الباب أن الحد يكون كفارة لأهله شيئاً أحسن من حديث عبادة بن الصامت .

وقوله : « فعوقب به » يعم العقوبات الشرعية ، وهى الحدود المقدرة أو غير المقدرة ، كالتعزيزات ، ويشمل العقوبات القدرية : كالمصائب ،والأسقام والآلام ، كما ذكرنا من قبل .

وأما حديث : « لا أدرى : الحدود كفارة لأهلها أم لا ؟ » [2] فمحمول على أنه قال ذلك قبل أن يعلمه الله تعالى ، فإن الله تعالى يعلمه ما لم يكن يعلم .

فهذه كلها مكفرات للذنوب والخطايا ، فمن لم تطهره هذه الحمامات كلها ، طهر فى حياة البرزخ، بأن يعذب فى قبره،فإن لم يتطهر بذلك ، فلا يطهره إلا النار ، أعاذنا الله منها .

* * *

(١) رواه البخارى (١٨) ، ومسلم (١٧٠٩) .

(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة (١ / ٣٦ ، ٢ / ١٤ أو ٤٥٠) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى كما صححه الحافظ ابن حجر فى الفتح على شرطهما أيضاً . أنظر : الفتح (١ / ٦٦) .